

إضاءات فى الوعي

مداخل أساسية وقضايا شائكة

السنوسى محمد السنوسى

دار البشير

- إن نظرة متأنية لمجتمعاتنا لَتكشف لنا عن حالةٍ من التردي في فهم حقائق الرسالة المنوطة بها، كما تكشف أيضًا عن حـالة من العجز عن الاشتباك مع أسئلة التغيير والحضارة ، على النحو المطلوب .

وهذا الكتاب يحاول أن يلقي إضاءاتٍ على بعضٍ من هذه القضايا .

- وقد جاءت هذه " الإضــاءات " في أربعة فصول :

- الأول: في المصطلحات والتأسيس الفكري .
- الثاني: في أسئلة التغيير والحضارة .
- الثالث: في علاقتنا بالغرب .
- الرابـع: في الأمل والمستقبل ,

دار البشير للثقافة و العلوم



Tel .: 01152806533 - 01012355714
darelbasheeralla@gmail.com - darelbasheer@hotmail.com






إضاءاتٌ في الوَعْي

مَداخلُ أساسية.. وقضايا شَائِكة

السنوسي محمّد السنوسي




دار البشير
للثقافة والعلوم

اسم الكتاب: إضاءات في الوعي
التأليف: السنوسي محمد السنوسي
موضوع الكتاب: سياسة
عدد الصفحات: 176
عدد الملازم: 11
مقاس الكتاب: 17 × 24
عدد الطبعات: الطبعة الأولي
الإيداع القانوني: 2014/23008
الترقيم الدولي: I.S.B.N.978/977/278/456 /1
الصف التصويري: الندى للتجهيزات الفنية

التوزيع والنشر
دار البشير للثقافة والعلوم
مصر
darelbasheer@hotmail.com
darelbasheeralla@gmail.com
ت: 01152806533 - 01012355714

1436 هـ
2015 م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلىٰ أبي.. مُعلِّمي الأول

وأمي.. الحب الفيّاض



توطئة

أظن أنني لست بحاجة لسرد كثيرٍ من الأدلة أو الشواهد؛ لتأكيد أن الأزمة المعاصرة- التي تُلقي بظلالها القاتمة علىٰ حاضرنا، والتي ذهبت بنا بعيدًا عن إدراك خرائط الواقع، ومعادلاته المتشابكة- هي أزمةُ وعي بالدرجةِ الأولىٰ.. وأن ما يلوح في الأفقِ من أزمات أخرىٰ مجردُ انعكاساتٍ بالضرورة لتلك الأزمة.

والإنسان الذي حُمِّل أمانة عمارة الكون، وطُلب منه إقامة راية العدل والحرية في الأرض، حتىٰ إن ذلك يُعد عبادةً يتقرَّب بها المرءُ إلىٰ الله، كالصلاة والصيام.. هذا الإنسان قد مَنَّ الله عليه بعقل ناضج، وفكر ثاقب، يستطيع أن يميز بهما- لدرجةٍ كبيرة- الخيرَ من الشر، وأن يدرك الصواب من الخطأ، وأن يعرف الفضيلة من الرذيلة.

كما يستطيع الإنسان بهذا العقل وذلك الفكر أن يتفاعل مع كتاب الله المسطور (القرآن الكريم)، وكتاب الله المنظور (الكون الفسيح)؛ من غير حرج ولا تناقض، بل في انسجام وتكامل وتناغم.

ومن ثم، لم يكن غيرُ العاقل مكلَّفًا، ولا مسئولًا عن أيّ من تصرفاته، فالعقل شرط التكليف، وتوظيفه وتفعيله شرط التمكين.

وأعتقد أننا لن نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا: إن الإنسان يستمد مكانته- في درجات السُّلَّم الحضاري- من قدرته علىٰ الوعي بما يحيط به، ومن فَهْمه العميق لِمَا هو مقبل عليه، ومن استجابته اللائقة للتحديات التي تفرض نفسها عليه باستمرار.

وإن نظرة متأنية لمجتمعاتنا لَتكشف لنا عن حالةٍ من التردي في فهم حقائق الرسالة المنوطة بها، كما تكشف أيضًا عن حالة من العجز عن الاشتباك مع أسئلة التغيير

والحضارة، علىٰ النحو المطلوب.

لذا، فإن من الأهمية بمكان أن يأخذ موضوع «الوعي» الآن المساحة الكبرىٰ من العرض والتفصيل، ومن الحوار والنقاش؛ ذلك لأن الأمة المنوط بها مسئولية «الشهود الحضاري» هي في أمسِّ الحاجة لأن تعي منهجية هذا «الوعي»، ورساليته، وركائزه، ومفاهيمه.

وفي هذا الكتاب، نحاول- مستلهمين العون والتوفيق من الله سبحانه- أن نلقي إضاءاتٍ علىٰ بعضٍ من هذه القضايا، مستنيرين بالقرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وبما سجله لنا تاريخنا المضيء من صفحات خالدة.

وقد جاءت هذه «الإضاءات» في أربعة فصول:

الأول: في المصطلحات والتأسيس الفكري.

الثاني: في أسئلة التغيير والحضارة.

الثالث: في علاقتنا بالغرب.

الرابع: في الأمل والمستقبل.

والله سبحانه أسأل أن يجعل هذه الكلمات نافعةً لي ولمن قرأها، وأن تكون إسهامًا مضيئًا في رحلة «الوعي»، نحو استئناف دور أمة الإسلام في «الشهود الحضاري»، وفي حَمْلِ مشعل الهداية للبشرية جمعاء.

ولا يفوتني أن أشكر «دار البشير» أن أتاحت لهذه «الإضاءات» أن ترىٰ النور.. راجيًا لها أن تكون دومًا منبرًا للكلمة الواعية، وللرسالة الصادقة..

السنوسي محمد السنوسي

غرة شعبان 1453هـ

31 مايو 2014م



الفصل الأوّل

في المصطلحات والتأسيس الفكري



الإسلام والفكر الإسلامي.. تشابهٌ وتمايز

ثمة فروق دقيقة بين كثير من المصطلحات والمفاهيم المتقابلة والمتداخلة، ينبغي استحضارها، والتنبيه دائمًا إليها؛ لأن تجاهل هذه الفروق يؤدي إلىٰ الخلط والتلبيس، وإلىٰ تشويه الحقائق، مما يصعب معه أن يقوم حوار فكري بنّاء، يهدف إلىٰ الاتفاق علىٰ الأصول والكليات، والتجاوز في الفروع والجزئيات، وإلىٰ التشديد في المتفق عليه، والتسامح في المختلف فيه.

من تلك الفروق الدقيقة فيما يتصل بالمصطلحات والمفاهيم، الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي.. هل هما شيء واحد متطابقان؟ أم أن لكل منهما دائرته، وخصائصه، ومصادره، وبينهما تداخل وتمايز، ولا يجوز بحال من الأحوال مهما اتسعت دائرة التداخل والتشابه أن نغفل عن دائرة التمايز والاختلاف؟

في البداية لابد من تحرير المصطلحات؛ حتىٰ نضبط المفاهيم والمضامين.

الإسلام هو الدين الذي أرسل الله به نبيه محمدًا ﷺ إلىٰ الناس كافة، وهو يتمثل في القرآن الكريم، وما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير[1].

أما **الفكر الإسلامي** فهو تعاطي المسلمين مع هذا الوحي المعصوم- القرآن الكريم والسنة النبوية- فهمًا واستنباطًا وتطبيقًا، أو فكرًا وممارسة.

وللإجابة عن السؤال المطروح نقول: إن الإسلام ليس هو الفكر الإسلامي؛ لأننا نستطيع أن نقول بإجمال: «إن الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي هو الفرق بين ما لله وما للإنسان» علىٰ حدّ تعبير الشيخ محمد الغزالي، فبين الإسلام والفكر

---

(1) أرسل الله سبحانه أنبياءه ورسله جميعًا بدين واحد هو دين الإسلام، لكن تعددت شرائعهم واختلفت أحكامها التفصيلية؛ حسب طبيعة الأقوام الذين أُرسلوا إليهم، والأدواء التي انتشرت فيهم. ثم صار لفظ «الإسلام» خاصًا وعَلَمًا علىٰ الرسالة الخاتمة التي جاء بها النبيُّ محمد ﷺ للبشرية جميعًا؛ حيث أكمل الله سبحانه به الدين، وأتم النعمة، وأقام الحجة؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ (المائدة: 3).

الإسلامي أوجهُ تشابهٍ وتداخل في دوائر عمل كل منهما، كما أن بينهما أوجه اختلاف وتمايز، بحيث يبقىٰ لكل منهما سماته وخصائصه المتميزة والمتفردة.

وتأتي أوجه التشابه بينهما من أن الفكر الإسلامي يعتمد علىٰ الإسلام، وينطلق من نصوصه وثوابته، ومنه يستمد مدارسه ومذاهبه، وهو- أي الفكر الإسلامي- يقدّم مقولاته الأساسية، بما تشمله من مفاهيم وقيم ومبادئ وأصول.. لا علىٰ أنها نصوص مقدسة، ولكن باعتبار أن هذه المقولات هي الفهم «البشري» للنص «المقدس»، وهي التطبيق «المقيد» بالزمان والمكان والحال، للحكم «المُطلَق» الذي يتجاوز في دلالاته ومضامينه حدودَ الزمان والمكان والحال..

وهذا ما قد يُحدث بعض اللبس، خاصة عند المتربصين من المستشرقين وأذنابهم، الذين لا يحسنون التفرقة بين النص المقدس والفهم البشري.. بين الأصول الثابتة والفروع المتغيرة.. بين الشريعة (وهي وحيٌ إلهي) وبين الفقه (وهو اجتهاد بشري).

وأما أوجه الاختلاف والتمايز، فهي أن الإسلام وَضعٌ إلهي، ثابت لا يتغير، يصلح لكل زمان ومكان، ومصدره القرآن الكريم والسنة النبوية؛ ولذا فهو مقدس وتجب له السمع والطاعة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ (النور)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب).

أما الفكر الإسلامي فهو اجتهاد بشريٰ، يتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال، ويقوم علىٰ النشاط الذهني بما فيه من تحليل وتركيب وتنسيق واستنباط، كما أنه فكر يلتزم بالأصول والثوابت الإسلامية ويجتهد في تكييف المتغيرات والمستجدات، ويبقىٰ- في مجمله- قابلًا للأخذ والرد؛ ولذلك يقول الإمام مالك: «كل إنسان يُؤخذ من كلامه ويُرد، إلا صاحب هذا القبر»، وأشار إلىٰ قبر النبي ﷺ.

ويوجز الشيخ محمد الغزالي الفرق بينهما فيقول: «الفكر الإسلامي مستحدَث،

ويخضع لقانون التطور، ولعوامل الاضمحلال، أما الإسلام فإنه كتاب ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت). الفكر الإسلامي غير معصوم من الخطأ والوهن، والإسلام معصوم عن ذلك كله. وكتاب الإسلام- لأنه معصوم من الزيغ والضعف- له قداسة، وله حق الطاعة المطلقة على المؤمنين به. والفكر الإسلامي لا تجب الطاعة له إلا بقدر ما فيه من تمثيل لكتاب الله ورسالة السماء، ذلك أنه- أصالة- يخضع للنقد والمخالفة. الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي هو الفرق بين ما لله وما للإنسان»[1].

ويؤكد هذا الفرق أيضًا الإمام محمود شلتوت فيقول: «وقد اتصلتْ بالقرآن- بعد أن التحق محمد بربه- أفهامُ العلماءِ والأئمة فيما لم يكن من آياته نصًّا في معني واحد، ومن هذا الجانب اتسع ميدان الفكر الإسلامي، وكثرت الآراء والمذاهب في النظريات والعمليات، لا على أنها دين يُلتَزم، وإنما هي آراء وأفهام فيما هو من القرآن محتمل للآراء والأفهام، يردّ فيها كل ذي رأي منها رأيه إلى الدلالة التي فهمها هو من النص القرآني، بمعونة ما صح عنده من أقوال الرسول أو أفعاله، أو من القواعد العامة التي ترمي إليها روحُ الدينِ عامة» [2].

إن هذا التداخل والتمايز بين الإسلام والفكر الإسلامي يدلان بوضوح لا لبس فيه أن الإسلام لم يحجر على العقل، ولم يضع له قيدًا من التقليد والاتباع دون دليل، بل فتح له أبوابًا رحبة من الفهم والتدبر في كتاب الله المسطور (القرآن) وكتاب الله المنظور (الكون)، وفي أعماق النفس وآفاق الكون، فالإسلام «دين يتسع للحرية الفكرية العاقلة، ولا يقف- فيما وراء عقائده الأصلية وأصول تشريعه- على لون واحد من التفكير، أو منهج واحد من التشريع، وقد كان- بتلك الحرية- دِينًا يساير جميع أنواع الثقافات الصحيحة، والحضارات النافعة التي يتفتق عنها العقلُ البشري في صلاح البشرية وتقدمها، مهما ارتقى العقل، ونمت الحياة»[3].

---

(1) الغزالي، ليس من الإسلام، ص: 114.

(2) شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص: 8، دار الشروق، ط10، 1980م.

(3) المصدر نفسه، ص: 9.

دائرة عمل الفكر الإسلامي:

تتميز رسالة الإسلام بخصائص عدة، استحقت بها أن تكون خاتمة للرسالات السماوية، ومهيمنة عليها، وصالحة للتطبيق علىٰ اختلاف الزمان والمكان والأحوال.

من هذه الخصائص: الجمع بين الثبات والمرونة، ونعني بذلك «الثبات علىٰ الأهداف والغايات والمرونة في الوسائل والأساليب، الثبات علىٰ الأصول والكليات والمرونة في الفروع والجزئيات، الثبات علىٰ القيم الدينية والأخلاقية والمرونة في الشئون الدنيوية العلمية».

ودائرة عمل الفكر الإسلامي هي مساحات المرونة، بما تتضمنه من المرونة في الوسائل والأساليب، والفروع والجزئيات، والشئون الدنيوية العملية، وهي المساحات التي تقبل تعدد الآراء وتنوعها، ولا بأس فيها من الاختلاف المنضبط بأصول الاختلاف العلمية والأخلاقية. وتُعرف هذه المساحات في علم أصول الفقه بـ«محل الاجتهاد»، أيْ: ما يجوز فيه الاجتهاد.

لقد كان لازدهار الفكر الإسلامي وتعدد مدارسه الفقهية والكلامية، وتنوع مناهج الاجتهاد فيه، أسباب شتىٰ، بعضها يرجع إلىٰ النصوص الشرعية ذاتها، وبعضها الآخر يرجع إلىٰ الواقع المتجدد. وأهم هذه الأسباب: أن النصوص منها محكم ومتشابه، وأن النصوص متناهية والأحداث غير متناهية، وأن عقول الناس في الفهم والاستنباط متفاوتة، وأن العادات والأعراف تختلف من زمان إلىٰ زمان، ومن مكان إلىٰ مكان.

ومن هنا، فإن الوقائع التي تقع للناس بالنسبة لأحكام الإسلام، القطعية والظنية، تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

1- وقائع وردت فيها نصوص محكمة، قطعية الثبوت والدلالة، فهذه لا اجتهاد فيها ولا تأويل؛ لأن المسلم «مقيد حقًّا بالنصوص المحكمة الثابتة من القرآن والسنة، وهي المجزوم بثبوتها، القواطع في دلالتها، التي أراد الشارع الحكيم أن تلتقي عندها الأفهام، ويرتفع عندها الخلاف، وينعقد عليها الإجماع، فهي أساس

الوحدة الفكرية والسلوكية للمجتمع المسلم، وهي للأمة كالجبال للأرض، تمسكها أن تميد، وتحميها أن تضطرب وتتزلزل، وهذا النوع من النصوص قليل جدًا بالنسبة إلىٰ سائر النصوص» [1].

2- وقائع وردت فيها نصوص متشابهة، ظنية الثبوت والدلالة، وهذه محل الاجتهاد والاختلاف؛ «لأن المجتهد عليه أن يبحث في الدليل الظني الورود من حيث سنده، وطريق وصوله إلينا عن الرسول ﷺ، ودرجة رواته من العدالة والضبط والثقة والصدق.. فإذا أدّاه اجتهاده في سند الدليل إلىٰ الاطمئنان لروايته، وصدق رواته، اجتهد في معرفة ما يدل عليه الدليل من الأحكام، وما يطبق فيه من الوقائع؛ لأن الدليل قد يدل ظاهره علىٰ معنىٰ، ولكنه ليس هو المراد.. وهاديه في اجتهاده: القواعدُ الأصولية اللغوية، ومقاصد الشارع ومبادئه العامة، وسائر نصوصه التي بيّنت أحكامًا، وبهذا يصل إلىٰ أن النص يطبق في هذه الواقعة أو لا يطبق» [2].

3- وقائع لم يرد فيها نصوص، ويسميها د. يوسف القرضاوي بـ «منطقة الفراغ التشريعي»، وهي المنطقة التي تركتها النصوص- قصدًا- لاجتهاد أولي الأمر والرأي، وأهل الحل والعقد في الأمة، بما يحقق المصلحة العامة، ويرعىٰ المقاصد الشرعية، من غير أن يقيدنا الشارع فيها بأمر أو نهي.

وهذه الوقائع- التي لم يرد فيها تشريع- فيها مجال متسع للاجتهاد؛ لأن المجتهد يبحث ليصل إلىٰ معرفة الحكم فيها من خلال القياس، أو الاستحسان، أو الاستصحاب، أو مراعاة العرف، أو المصالح المرسلة، أو غير ذلك من أدلة الأحكام.

وهكذا نرىٰ أن مساحة الاجتهاد- التي تمثل دائرة عمل الفكر الإسلامي- مساحة رحبة واسعة، إذ هي لا تستثني إلا النصوص المحكمة، قطعية الثبوت والدلالة، وماعدا ذلك فالباب فيه مفتوح أمام الاجتهاد والتجديد والاختلاف والتنوع، مادام أنه

---

(1) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، ص: 228.

(2) الشيخ عبد الوهاب خلاف، أصول الفقه، ص: 217، دار القلم، ط 8.

لا يتصادم مع الأصول الثابتة والقواعد العامة المستقاة منها، ومادام أنه يحقق مصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة.

كما نرى- أيضًا- أن الفكر الإسلامي هو عمل العقل المسلم في الإسلام فهمًا وتطبيقًا؛ ولذا يظل من الأهمية بمكان أن ندرك الفرق بينهما؛ لأنهما مهما بلغا من التداخل، فلكل منهما دائرته الخاصة، وسماته المميزة.

ومن ثم، فمصدر التلقي- الذي له العصمة والحفظ- هو القرآن الكريم والسنة النبوية، وليس الفكرَ البشريَّ غيرَ المعصوم، فهذا الفكر البشري- وإنْ بلغ درجات عليا من الرقي والنقاء- يبقى في المحصلة جهدًا بشريًّا، يقبل الخطأ والصواب، والأخذ والرد.

المصطلحات.. بين التحرير والتزييف

من الأمور التي تثري الحوار وتجعله هادفًا وبناءً، وبعيدًا عن السفسطة والتلاعب بالألفاظ؛ البدءُ بالتحديد الدقيق لمعاني المصطلحات والمفاهيم، محل الحوار والمناقشة.. وهذا ما يُعرف في تراثنا بـ«تحرير المصطلحات».

ذلك أنه إذا كانت اللغة وسيلة للتخاطب، فإن «تحرير المصطلحات» وسيلة للتفاهم؛ لأنه في غياب التحديد الدقيق للمصطلحات يصير الحوار مثل حوار «الطرشان»، أو يكون المتحاورون كمن يتحدثون بعضهم مع بعض بلغات مختلفة، فأنّىٰ لهم أن ينالوا مرادهم من الفهم والتواصل؟!

وتتأكد أهمية «تحرير المصطلحات» إذا كنا بصدد الحديث عن التيارات الفكرية المعاصرة، ونقد الحضارة الغربية، ومناقشة المذاهب الوافدة؛ لأن «المصطلحات التي نواجهها اليوم.. ليست ألفاظًا لغوية، أو أوصافًا لعلم من الأعلام، وإنما هي مصطلحات تكمن وراءها منظومة حضارة تختلف في مقدماتها ونتائجها من منظومتنا، أو نمطنا الاجتماعي»[1].

ومن ناحية أخرىٰ، فإن الغرب يسعىٰ دائمًا لجعل مصطلحاته ومفاهيمه ذات صبغة معرفية مركزية، لتكون مصطلحات عالمية، ترى العالم من خلالها، وتتحدد معاني الأشياء كما تتداولها الحضارة الغربية.

في القرآن والسنة:

كما عُني الإسلام بتصحيح العقائد والتصورات، ونقل الناس من عبادة الأوثان إلىٰ التوحيد الخالص، والإيمان النقي، والفطرة السليمة، فإنه عُني – أيضًا – بضبط الألفاظ التي هي وعاء لتلك التصورات؛ ليكون الوعاء والمضمون متناسقين غير متناقضين.

(1) «المذهبية الإسلامية والتغير الحضاري»، د. محسن عبد الحميد، ص: 114، سلسلة «كتاب الأمة»، قطر، 1984م.

لذا نبَّه القرآن الكريم إلىٰ ضرورة التفرقة بين لفظ وآخر حين يختلف معناهما، قال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: 14)، فقد أمر الأعراب باستعمال لفظ «الإسلام» بدلًا من «الإيمان»، وأخبرهم أنهم قد دخلوا في الإسلام ولكن لم تتحقق قلوبهم بعد بالإيمان.

وحذر القرآن الكريم- أيضًا- من استعمال الألفاظ التي يستعملها غير المسلمين، خاصة إذا اختلفت دلالتها، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ (البقرة).

قال القرطبي في تفسيره: «حقيقة (راعنا) في اللغة: أرْعنا ولنَرْعك؛ لأن المفاعلة بين اثنين، فتكون من رعاك الله، أي احفظنا ولنحفظك، وارقبنا ولنرقبك، ويجوز أن تكون من أرعنا سمعك، أي: فرِّغ سمعك لكلامنا. قال ابن عباس: كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ: راعنا علىٰ جهة الطلب والرغبة- من المراعاة- أي: التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سبًا، أي: اسمع لا سمعت، فاغتنموها وقالوا: كنا نسبّه سرًّا فالآن نسبه جهرًا، فكانوا يخاطبون النبي ﷺ ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ- وكان يعرف لغتهم- فقال لليهود: عليكم لعنة الله، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا: أو لستم تقولونها؟! فنزلت الآية، ونهوا عنها؛ لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعني الفاسد»[1].

فنقلُ الألفاظ من بيئة حضارية إلىٰ بيئة حضارية أخرىٰ، دون الأخذ في الاعتبار الأجواء والملابسات التي تولّدت فيها تلك الألفاظ، يؤدي بالضرورة إلىٰ حالة من التلبيس والتدليس الفكري.

وفي السنة النبوية نجد النبي ﷺ يهتم بتحديد الألفاظ التي يتداولها الناس، حتىٰ يمنع اختلاف التصورات والأحكام.

فقد روىٰ الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ

(1) «الجامع لأحكام القرآن» القرطبي، من «المكتبة الإسلامية» علىٰ موقع «إسلام ويب».

يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ».

ففي هذا الحديث الشريف يوضح النبي ﷺ أن «الكبر» ليس اهتمام الرجل بثوبه ونعله، إنما هو ردّ الحق، وعدم قبوله، واحتقار الناس والتعالي عليهم.

في حضارتنا الإسلامية:

لقد تميزت حضارتنا الإسلامية- من بين ما تميزت به- بمنهجها العلمي، الذي ينطلق في استجلاء المفاهيم والمضامين من التفرقة بين الاسم اللغوي والاسم الشرعي.. الحقيقة والمجاز.. الخاص والعام والمشترك.. المطلق والمقيد.. إلىٰ غير ذلك من قواعد تفسير النصوص الشرعية وغيرها، وأصول فهم المراد والأحكام.

وقد تكفل ببيان ذلك كله «علم أصول الفقه»؛ ولذا صح أن يقال عن هذا العلم إنه يمثل الفلسفة الإسلامية أفضل تمثيل، كما ذهب لذلك الشيخ مصطفىٰ عبد الرازق في «التمهيد للفلسفة».

فالصلاة- مثلًا- تطلق في اللغة علىٰ: الدعاء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ﴾ (التوبة: 103)، لكنها في الشرع تطلق علىٰ: أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة.

وكذلك الحج، فهو لغة: القصد، أما شرعًا فهو: قصد مكة للنسك في زمن مخصوص.

فتحرير المصطلحات واتباع المنهج العلمي كما تميزت به الحضارة الإسلامية، من شأنهما أن يسهما في حوار جاد حول مشكلات الحاضر وتطلعات المستقبل، ويوصلا إلىٰ حقائق لها قدر كبير من الثبات والصحة، بعيدًا عن الظن والتخمين.

مراجعات مهمة:

إذا أتينا إلىٰ القرن العشرين- وتأملنا مسيرة الوعي والفكر فيه- نجده قد تميز بكثرة المصطلحات المتداولة، والمناهج الوافدة، الفكرية والاقتصادية والاجتماعية، ومنها: الاشتراكية والرأسمالية، واليمين واليسار، والحداثة وما بعدها، وأخيرًا العولمة.

ولاشك أن المنهج الإسلامي قد يلتقي مع بعض هذه النظم في أشياء ويفارقها في أشياء أخرىٰ، لكنه في كل الأحوال يبقي نظامًا متميزًا بشموله، ووسطيته، ونظرته للإنسان روحًا ومادة.

ولذا ينبغي ألا نصبغ الإسلام بأي من هذه المناهج أو المصطلحات، حتىٰ وإن التقي معها في بعض أهدافها.

وقد رأينا بعض علمائنا الذين حاولوا أن يبرزوا نقاط الالتقاء بين هذه النظم والنظام الإسلامي؛ سعيًا لجمع الكلمة وتوحيد الصف، رأيناهم يتراجعون عن ذلك، حينما اكتشفوا أن الآخرين لا يعنيهم النظام الإسلامي ومنهجه بقدر ما يعنيهم تطبيق ما يدعون إليه من مذاهب مادية ووضعية؛ ولذا فقد تراجع الشيخ محمد الغزالي- رحمه الله- عن تبني مثل هذه المصطلحات، وأعلن ذلك صراحة، فقال: "في مواجهة التيارات الفكرية الهاجمة علينا، أصدرتُ عدة مؤلفات تتحدث عن النظام الاقتصادي الإسلامي، كما تصورته من كتاب الله وسنة رسوله، وتطبيقات الخلافة الراشدة، وكان يغلب عليَّ- وأنا أقدم هذا التصور- أمران:

1- إطلاع المثقفين المعاصرين من خريجي المعاهد الدينية علىٰ الجوانب المضيئة من تراثنا، والمغنية عما سواها، حتىٰ يكون تعلقهم بدينهم لا بغيره.

2- ثم الإزراء علىٰ الأوضاع المعوجة السائدة، ورفض السناد الديني الذي تنتحله لنفسها.

وأعترف بأني تجوَّزت في التعبير أحيانًا، وقبلت بعض العناوين الشائعة، كـ «الديمقراطية» في ميدان الحكم، و«الاشتراكية» في ميدان الاقتصاد؛ لا لإعجابي بهذه العناوين، ولكن لأجعل منها جسرًا يعبر عليه الكثيرون إلىٰ الإسلام نفسه، أي أني أريد نقل «الديمقراطيين» و«الاشتراكيين» إلىٰ الإسلام بعدما أوضحته وأبرزت معالمه؛ لا أني أريد صبغ الإسلام بصبغة أجنبية أو نقله إلىٰ مذاهب مستوردة»[1].

---

(1) الغزالي: قذائف الحق، ص: 189، دار القلم، دمشق، ط2، 1997م.

المصطلحات وإدارة الصراع:

لكل شعب من الشعوب محددات ثقافية، وقيم ومفاهيم تعبر عن هويته وجذوره، وتحكم حركة سيره وأفعاله، وهذا ما يسميه د. عبد الوهاب المسيري بـ«الخريطة الإدراكية».

ومن يتابع صراع العرب والمسلمين مع الصهيونية، ومن ورائها الغرب الاستعماري، الذي زرع الكيان الصهيوني في قلب العالم الإسلامي لتفتيته والسيطرة عليه، يجد أنهم قد شنوا بجانب عدوانهم العسكري علىٰ أرض المسلمين ومقدساتهم، حربًا أخري موازية- لا تقل ضراوة- علىٰ عقيدة المسلمين وفكرهم، واستخدموا في ذلك عشرات بل مئات المصطلحات[1]؛ لتشويه الحقائق وتزييف التاريخ، وأصبحنا نعيش في زمن تغيير الخرائط الإدراكية، كما هو الحال في الخرائط الجغرافية!!

مما سبق، نستطيع أن نخلص إلىٰ أن المصطلحات ليست وعاءً لغويًا فحسب، إنما هي مضمون يدل علىٰ الذات والهوية الحضارية التي تنبع منها.

ومن هنا، استحقت قضية «تحرير المصطلحات»، والتحذير من «تزييفها»، أن نوليها الاهتمام والعناية الفائقين.

---

(1) سيأتي ذكر لأهم هذه المصطلحات في الموضوع التالي «ثقوب في البناء الفكري».

ثقوب في البناء الفكري

* يظل العقل المسلم مُطالَبًا باستمرار لأن يعمل علىٰ تحصين بنائه الفكري، ومنهجه الربّاني المتفرِّد.. وأن يكون يقظًا من أن يتسرب إلىٰ وعيه ما يناقض أصوله، أو يبدِّل ثوابته، أو يصرفه - ولو قليلًا- عن مهمته ومسئوليته..

ومن المعلوم- لدىٰ دارسي تاريخ الحضارات وطرق تفاعلها وتلاقحها- أن الأفكار لا تتسرب من حضارة إلىٰ أخرىٰ دفعة واحدة، إنما تبدأ في الانتقال تدريجيًا فكرة بعد فكرة لتأخذ مكانًا ثابتًا في الحضارة المنقولة إليها.. حتىٰ تشكِّل- حينئذ- ثقوبًا في البناء الفكري لتلك الحضارة.. يصعب الفكاك منها أو تنقيتها.

والأداة التي تسلكها الأفكار والمفاهيم للنفاذ والانتقال، تتمثل بالدرجة الأولىٰ في (المصطلحات).. ومن هنا تأتي أهمية النظر والتدقيق في استعمال المصطلحات الوافدة قبل إدخالها في البناء الفكري والخصائص الذاتية لحضارتنا.

* والمتأمل في مسيرة صراعنا مع الصهيونية- مثلًا- ومن ورائها الغرب الاستعماري، يجد أنهم قد شنُّوا بجانب عدوانهم العسكري علىٰ أرض المسلمين ومقدساتهم، حربًا أخرىٰ موازية- لا تقل ضراوة- علىٰ المنهج الإسلامي، بأفكاره، وقيمه، وثوابته.

واستخدموا في ذلك عشرات بل مئات المصطلحات؛ لتشويه الحقائق، وتزييف التاريخ، وإحداث ثقوب وخروقات في بنائنا الفكري.

فهم حين يتحدثون عن «الشرق الأوسط»، يهدفون إلىٰ تغيير هوية البلاد العربية والإسلامية، وإدخال الكيان الصهيوني في علاقات ثقافية واقتصادية مع الشعوب العربية.

وحين يتحدثون عن «القدس الشرقية والقدس الغربية»، فإنهم يقصدون انتزاع حق المسلمين الثابت في استعادة كامل مقدساتهم.

كما أنهم يطلقون وصف «الإرهاب والعنف» علىٰ جماعات المقاومة، ويعملون علىٰ الخلط بين حق الشعوب في الدفاع عن نفسها وبين أعمال العنف والقتل غير المبررة شرعًا وقانونًا.

ويتحدثون أيضًا عن «المدنيين» الإسرائيليين، في محاولة منهم للإيحاء بأن الكيان الصهيوني مثل باقي دول العالم، به مدنيون وعسكريون، بينما يتعامون عن حقيقة ثابتة وهي: أن الكيان الصهيوني جيش له دولة، وليس دولة لها جيش!!

والأدهىٰ من ذلك أن نجد من بين العرب مَن يتحدث عما يسميه«عذابات اليهود علىٰ مرّ التاريخ»، وأن الوقت قد حان لإنهاء كل هذه المعاناة! في حين يتجاهل تمامًا الحديث عن الاضطهاد الواقع علىٰ الفلسطينيين، مع أن سبب معاناة الفلسطينيين هم اليهود، في الوقت الذي لم يكن فيه الفلسطينيون سببًا لمعاناة اليهود!

بل وجدنا من يحاول إبراز اغتصاب اليهود لفلسطين والصراع بينهما، وكأنه أمر يخص الفلسطينيين والإسرائيليين وحدهما، وليس صراعًا يشمل الأمة الإسلامية كلها، دفاعًا عن مقدساتها وأراضيها الإسلامية.

* إن المصطلحات ليست منبتة الصلة عن الحضارة التي تنشأ في أحضانها، فالحضارة- أيُّ حضارة- بما تنتجه من قيم ومفاهيم ومصطلحات تشبه- كما يذهب بعض الباحثين- الكيانَ العضويَّ الواحد، بحيث لا نستطيع أن نفصل عضوًا عن بقية الأعضاء.. بل يكون كل عضو بحاجة إلىٰ بقية الأعضاء؛ حتىٰ يؤدي هو ذاتُه عملَه علىٰ أتم وجه.

ولسنا بتأكيدنا علىٰ ضرورة استخدام المصطلحات التي عُرفت بها حضارتنا وتميزت، ندعو إلىٰ الانكفاء علىٰ الذات، أو إلىٰ الانغلاق عن التواصل مع الآخرين.. ولسنا نرفض الاستفادة من الخبرات والمنجزات الحضارية- التي هي إرث مشترك للإنسانية كافة- إنما نقصد التأكيد علىٰ ذاتنا الحضارية وتعميقها، ورفض «الذوبان» أو «الدمج» في الحضارات الأخرىٰ، كما نشدد بذلك علىٰ ضرورة التحاور مع الآخرين من مواقعنا، وقيمنا الثابتة، وبنائنا الفكري المتفرِّد.

الطُفولة العقلية.. قراءة في الأزمة الفكريّة

لعلَّ من أخطر مظاهر الأزمة الفكرية التي يعاني منها المسلمون في العصر الحديث، وتضع علىٰ عقولهم وقلوبهم أقفالًا وحُجُبًا، وتصدُّهم عن استئناف الريادة و«الشهود الحضاري».. ما يمكن أن نسميه بـ«**الطفولة العقلية**».

ونعني **بالطفولة العقلية**: تلك الغشاوة التي تصيب البصائر، وتحجب العقول، فتجعلهما غير قادرين علىٰ إدراك واقع الناس بخرائطه المتشابكة، وتلمُّس احتياجاتهم، ومقاسمتهم همومهم، وغير مؤهلين لإيجاد حلول خلاَّقة ومعالجات مبتكرة للمشكلات والأزمات، وغير مُبْصرين لشروط النهضة، ومقاصد الشريعة، وفقه الأولويات، وسُنن التغيير والإصلاح..

فيبدو مَنْ تصيبهم تلك الطفولة- التي ليست مرتبطة بمرحلة عمرية معينة- وهم يتحدثون عن مجتمعهم، ويحاولون تشخيص عِلَله وأدوائه، كمَنْ يتحدث عن مجتمع غير الذي يعيش فيه، أو يقصد عالَمًا من كوكب آخر!! مما يجعلهم طوال الوقت يُعنون بمشكلات ليس لها وجود، أو ليست علىٰ مستوىٰ من الأهمية، بينما يتجاهلون كوارث قائمة، تأكل الأخضر واليابس.. لا تبقي ولا تذر، ويتعامون عن أخطار تهدد الأمة في وجودها، ومناعتها، وثوابتها.

ولا تزال تلك الطفولة تنمو وتتفشّىٰ في المجتمع، وتنخر في عافيته، وتخصم من قوته، وتُضْعِفُ قدرته علىٰ التحدي والصمود والنهوض.. حتىٰ تصيب صفوته ومثقفيه، ومن يُناط بهم - بحكم مناصبهم علىٰ الأقل!- توجيه الرأي العام وغرس القيم.. فيغْدُون مُطلِّين علىٰ الواقع البئيس من برجٍ عاجي، ومنعزلين عن هموم الناس واهتماماتهم، دون أي إحساس بآلامهم وآمالهم، أو ملامسة مواطن الداء والدواء.

مظاهرها وأعراضها:

إننا نستطيع أن نتلمس مظاهر وأعراض الطفولة العقلية في جملة من الإشكاليات،

وهي من الوضوح ومن الأهمية بحث لا تخطئها عين المراقب، ولا يجوز أن تغيب عن مُريد الإصلاح والتغيير.

* وتتمثل أهم هذه المظاهر والأعراض في: **انعزال النُّخَب المثقَّفة عن واقع المجتمع**، الذي من المفترض أنهم جزء منه، ويعبِّرون عنه، ويجسِّدون أحلامه وأشواقه، ويرسمون له طريق النهضة والحضارة.. فبدل أن تكون هذه النُّخب (هُدَاة طريق) و(أدلَّاء خير) و(طليعةَ بعثٍ حضاريّ)، نراهم ينشغلون بقضايا فلسفية محضة، لا تَمُتُّ للواقع بصلة، ولا تمسُّ هموم الأمة من أي زاوية، بل تحلِّق في عالم الخيال والأوهام! وتَسْبح في بحر الأماني والافتراضات!

وتستمر تلك النُّخَب المثقَّفة في انعزالها عن المجتمع شيئًا فشيئًا، حتىٰ تتسع الهُوّة بينهما، ومن ثم يفقد المجتمع (عقلَه المدبِّر والموجِّه)، ويكون- حينئذٍ- جسدًا ضخمًا بلا رأس! أو كَمْن يسير في طريق وعرة علىٰ غير هُدىٰ وبيِّنة.. فأنَّىٰ له أن يصل إلىٰ غايته؟!

* وتتجلىٰ المظاهر أيضًا في **ضعف الخطاب الديني**، لغةً ومضمونًا، وعدم قدرة هذا الخطاب علىٰ مجاراة تطور الحياة والقضايا المستجدة مع المحافظة علىٰ الأصول والثوابت، وعدم تقديم رؤية إصلاحية نهضوية تستطيع إصلاح الدنيا بالدين، وتسهم في البناء الحضاري، و«**صناعة الحياة**»، وغرس قيم الإيجابية والإتقان والإعمار.

* كما تتبدىٰ لنا آثار الطفولة العقلية في **غياب القدرة علىٰ الإبداع والتجديد، وضآلة الإنتاج الفكري خاصة علىٰ مستوىٰ العلوم العملية والتطبيقية**، حتىٰ صارت الأمة تعتمد في غذائها ودوائها وكسائها وسلاحها علىٰ الدول الغربية، ولا تستطيع أن تستقلّ بأية صناعة في المجالات الحيوية! الأمر الذي جعل الشيخ محمد الغزالي يذكر متهكمًا أنه لو قيل لكل شيء في البلاد الإسلامية: عُدْ من حيث جئت، لسار الناس حفاة عراة، لا يجدون- من صنع أيديهم- ما يكتسون، ولا ما ينتعلون، ولا ما يضيء لهم البيوت!

نحو المصارحة والمكاشفة:

من المؤكد أن ثمة عوامل متشابكة ومترابطة، داخليًا وخارجيًا، قد أسهمت في تفشي الطفولة العقلية في واقعنا المعاصر، وإحداث هذه الفجوة الهائلة بين ماضٍ مشرق، استطاع المسلمون فيه أن يشيِّدوا حضارات زاهرة - ما زالت لها شواهد ناطقة كما في الأندلس- وبين واقعٍ متدهورٍ، يَئِنُّ تحت وطأة مشكلات اجتماعية وسياسية واقتصادية لا حصر لها.

إن رحلة العلاج- كما هو ثابت في علم الطب- تبدأ من دقّة تشخيص المرض وتوصيفه، وأيُّ جهدٍ يُبذَل دون الانطلاق من هذه الدقة هو جهد ضائع لا فائدة منه، بل هو جهد يباعد بيننا وبين إدراك الهدف المنشود..

فما لم نُحسنْ قراءة الأسباب التي أوصلتنا إلىٰ ما نحن عليه، ونضعْ أيدينا علىٰ جذور المشكلات، ونتدبرْ في أعماق الظواهر والأعراض، لنفهم ونحلِّل ونفقه سنن الله المعنوية والمادية معًا، فسنظل ندور في حلقة مُفْرغة من الشكوىٰ من مرارة الواقع وبُؤسه، دون الاهتداء إلىٰ الدواء الناجع، والبلسم الشافي.

** وإذا اتفقنا علىٰ ضرورة المصارحة والمكاشفة، ومواجهة النفس- علىٰ مستوىٰ الفرد والمجتمع- بعيوبها وسوءاتها، وأنه لا محيص عن ذلك للخروج من منعطفنا الحضاري.. **فيجب أن نعترف أن في مقدمة أسباب تلك الطفولة العقلية: الاستبداد السياسي،** الذي يتصوَّر الناس دائمًا أطفالًا لم يبلغوا سنَّ الرشد، ولا يستطيعون إدارة شئونهم بأنفسهم، فيفرض عليهم وصايته، ويمارس عليهم هيمنته، ويحدد لهم طريقًا واحدًا في التفكير والحياة، دون أن يعمل علىٰ توفير البدائل، وإيجاد فرص متنوعة وخلاَّقة، ودون أن يغرس في الناس أهمية المشاركة في العمل العام، وضرورة تحمّل المسئولية تجاه وطنهم وأمتهم، الأمر الذي يؤثّر في الناس بالسلب، ويجعلهم بعد فترة من الزمن ينسون أن لهم عقولًا، وأنهم قادرون علىٰ الاختيار، وتحمّل المسئولية، وتقرير مصيرهم بأيديهم!

ولعل هذا المعنىٰ هو ما قصده ابن خلدون حين قال مقولته المشهورة: «**الظلمُ مُؤْذِنٌ بخرابِ العُمران**».

فالاستبداد تظهر وطأته علىٰ الإنسان والأشياء، وتنطبع بصماته علىٰ العقول والأفكار.. فيضمر الإبداع، ويُحْجِمُ المصلحون والمفكرون عن الإدلاء بآرائهم خشية أن تصيبهم سطوته، ولا تجد الناشئة والبراعم- حينئذ- مَنْ يأخذ بيدها، وينير لها طريق العلم والحرية..

هذا عدا ما يصيب البلاد والعباد من القحط والفقر، وتكدّس الأموال في يد ذوي النفوذ والسلطان، وما يترتب علىٰ ذلك من زيادة الفجوة بين شرائح المجتمع، بما يفقده توازنه، وتماسكه، وتراحمه، وإنسانيته.

ويوم أن افترق السلطان عن القرآن، وصار الحكم مَغْنمًا، وتفككت دولة الخلافة، وانتشرت الدسائس خاصة بين السياسيين... تحولت الأمة الإسلامية ذات (الجسد الواحد) إلىٰ دويلات مُمزَّقة مفكَّكة، وصارت شِيَعًا وأحزابًا، يأكل بعضها بعضًا.. وما ذلك إلا أثر من آثار الاستبداد، الذي يهلك الحرث والنسل، ويُفسد العمران مثلما يُفسد الضمائر والعقول والأخلاق!

** كما أن **تراجع الدور الحضاري لأمة الإسلام**، قد أسهم بدرجة كبيرة في تفشي «الطفولة العقلية»، وتأخر سنِّ الرُّشد الفكري، فاختزال الإسلام في الجانب التعبدي مع الغفلة عن المعنىٰ الشامل لمفهوم العبادة، والاحتفاء بالغيبيات التي لا سَنَدَ لها من الكتاب والسنة، والجنوح إلىٰ الخرافات والأوهام تحت مُسمَّىٰ (الكرامات)، والاقتصار علىٰ دراسة المتون والحواشي دون تطوير أساليب الدرس والتأليف، وعدم مواكبة المستجدات والواقع المتغير، والعجز عن إدراك الكُلِّيات والمقاصد العامة للشريعة، ودعوىٰ إغلاق باب الاجتهاد، وعدم إدراك الصلة الوثيقة- بل والتطابق الكامل- بين كتاب الله المسطور (القرآن الكريم) وكتاب الله المنظور (الكون)، والذهول عن سنن الله الثابتة في الأنفس والأفاق.. كل ذلك وغيره كان من سمات العقل الإسلامي في عصور التراجع الحضاري، التي أوجدت فجوة هائلة بين دين الله ودنيا الناس، وطبَعت العقول علىٰ التقليد والمحاكاة، وطمَست فيها القدرة علىٰ التجديد والإبداع.

ولم يستطع عقل المسلم المعاصر بعدُ أن يتخلص كليًا من آثار عصور التراجع الفكري والحضاري، رغم ما بُذل من محاولات مضيئة لإيقاظه من رقدته وغفلته، والرجوع به إلىٰ صورته الناصعة في القرون الأولىٰ.. ومازال أمامه عقبات كثيرة يتعيَّن عليه أن يتخطاها، ويبني علىٰ ما تحقق فيها من إنجاز.

** ثم يأتي- من قبل ذلك ومن بعد- **الغزو الفكري**، الذي مثَّل إحدىٰ أذرع الاحتلال العسكري ووسائله في السيطرة والنفوذ، وأدواته في تغيير العقول والأفكار؛ لفَرْضِ نموذجه الفكري، ونمطه الاجتماعي، حتىٰ يستطيع الاحتلال ترسيخ أقدامه، وإضعاف قدرة الشعوب المحتلة علىٰ الصمود والمقاومة..

وقد استطاع المستشرقون أن يجنّدوا في بلاد المسلمين تلاميذ مخلصين لهم، يتبنون أفكارهم، ويروِّجون لها، ويُلْبسونها ثوبَ العقلانية والحرية والإبداع!! وكان بعضهم أشد خطرًا علىٰ الإسلام من المستشرقين أنفسهم!

ولا يخفىٰ علينا أن المستشرقين قد استخدموا- لتحقيق أهدافهم، وتزييف وعي الأمة، وتشويه عقيدتها وتراثها- أساليب شتىٰ، من بينها: إثارة الشبهات حول الإسلام، عقيدةً وشريعةً، وحول اللغة العربية، أدبًا وفكرًا، وكان القصد من هذه الشبهات زعزعة الإيمان بالإسلام ولغته، وبقدرتهما علىٰ التواصل مع الحاضر، والإسهام في الحضارة الإنسانية مرة أخرىٰ.

كما أثاروا شبهاتهم أيضًا حول **التاريخ الإسلامي**، فصوَّروه علىٰ أنه تاريخ نزاعات وصراعات، وتكالب علىٰ الحكم، واضطهاد للأقليات المذهبية والعرقية..

وكانت الدراسات الاستشراقية تتخذ- عن عمد- من بعض الصراعات في تاريخ المسلمين دليلًا وحجةً علىٰ فشل النموذج الإسلامي في الحكم وإدارة المجتمع، دون أن تلتفت تلك الدراسات إلىٰ الفرق الشاسع بين "الإسلام" كدين سماوي له العصمة والخلود علىٰ مدار الزمان والمكان والحال، وبين "فهم المسلمين" للإسلام، وتطبيقهم له أو ابتعادهم عنه.

ولذلك لا يصح- في المنهج العلمي المنزّه عن الهوىٰ- أن تُحسب أخطاء

المسلمين- مهما بلغت- علىٰ الإسلام، الفكرة والمنهج.. بل تبقىٰ تلك الأخطاء شاهد صدق علىٰ الطبيعة البشرية القاصرة، التي وإنْ أحرزت درجات عليا في الرقي والسمو فلن تبلغ الكمالَ المطلق؛ لأن الكمال المطلق لله سبحانه وحده.

وقد نجحت خطط الغزو الفكري في تحقيق أهدافها إلىٰ حدّ بعيد، حتىٰ أصبح الالتزام بالإسلام إرهابًا، والدعوة إلىٰ اللغة العربية تخلفًا ورجعية! وصار بعض المسلمين يخجلون من إعلان انتسابهم للإسلام وولائهم له، في الوقت الذي يحرصون علىٰ «الرطن» باللغات الأجنبية، ويتباهون بذلك!

لقد كان لإبعاد المسلمين عن الإسلام في نقائه وصفائه، وعن اللغة العربية وآدابها في اتساعها وتنوعها، آثارٌ وخيمةٌ في (جمود الفكر) و(فقر الإبداع).

ذلك لأن الإسلام لا يمثل للمسلمين عقيدةً فحسب، بل هو نظام شامل يمدُّهم بتصورات واضحة المعالم والقَسَمات، حول الكون، والحياة، والوجود الإنساني وغايته، ويقوم في تقرير ذلك علىٰ الحقائق الثابتة لا الظنون والأوهام، وهو نظام يُعلي من قيمة العقل، ويحضُّ علىٰ التفكير، وينعىٰ علىٰ التقليد والجمود، ويدفع الإنسان إلىٰ الحقائق المطْلقة بالدليل والبرهان.

كما أن اللغة العربية هي وعاء هذا الدستور الخالد (القرآن الكريم)، وحاضنة مفاهيمه وقِيَمه، والسبيل إلىٰ فهمه وإدراكه، والتفاعل معه بمستوىٰ يليق بعمق تصوراته واتساع حقائقه.

ولا غرو، فالقرآن الكريم هو كتاب العربية الأعظم، واللغة العربية هي بيانُ القرآنِ المشرقُ المُعْجزُ الخالدُ.

نحو استئناف المسيرة:

إن من أعظم آثار الغزو الفكري، والتي ما زلنا نعاني منها حتىٰ وقتنا الحاضر، أنْ عاش المسلمون مرحلة من (التِّيه الحضاري)، و(الازدواج الفكري)، و(التشتت النفسي).

فلم يستطيعوا الاندماج في الحضارات الأخرىٰ، ونقلها بخيرها وشرها، وتعلم

لغاتها والإبداع بها؛ لأن ذلك غير ممكن عقلًا وشرعًا؛ لأن التجارب الحضارية لا تُستنسخ، ولا تُنقل بالكلية، إنما تتلاقح وتتفاعل، ويجوز فقط أن يقتبس بعضها من بعض بصورة ما.. فلكل بيئة حضارية خصائصُها المميِّزة، وإشكالياتُها الذاتية، وأيضًا حلولُها التي تظل وَقْفًا وحِكْرًا عليها، بحيث إنه ليس بالضرورة لهذه الحلول أن تؤدي عملها بالفاعلية ذاتها، إذا ما نُقلت إلىٰ بيئة حضارية أخرىٰ، ذات إشكاليات مغايرة كليًا أو جزئيًا.

كما أن المسلمين- نتيجة لهجمة الغزو الفكري والثقافات الوافدة- لم يستطيعوا أن يحافظوا علىٰ تراثهم بنقائه وصفائه، ويستفيدوا مما فيه من إبداعات متميزة، وإسهامات فكرية رائدة في جميع المجالات: الاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية، والنفسية، بل وفي علوم الكون، والطب، والرياضيات أيضًا .. وهو التراث الذي ما أيسر أن يتواصلوا معه من جديد، ويبدعوا بلغته الخلاقة المتفرِّدة، ويستأنفوا مسيرته الحضارية، ذات الخصائص الربَّانية والإنسانية والأخلاقية.

ولذلك نقول:

إنه لا يمكن للمسلمين أن يعودوا مرةً ثانية إلىٰ الرّشد الفكري، والنّضج الحضاري، وسابق مجدهم وتفوقهم العلمي، ولا يمكن للعقل المسلم أن يُزاوج بين المثال والواقع، والحقيقة والخيال، ويستأنف مسيرة الإبداع والتجديد، إلا في ظلال الإسلام، وما يصوغه من تصورات ونُظُم ومناهج، وفي رحاب ما تركه علماؤنا السابقون من نهضة فكرية أثْرت تاريخَ البشرية، وأقامت حضارة متوازنة ومتكاملة؛ لأن الإسلام دين الله الخاتم الذي أكمله، وشِرْعَتُه الباقية التي ارتضاها، وفِطْرته النقيَّة التي فطر الناس عليها: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك) .

الفصل الثاني

في أسئلة التغيير والحضارة



فقه المواجهة.. معالم ومرتكزات

حين تكون الأمة- أيُّ أمة- مهددة في ثوابتها، وثقافتها، وأرضها، وسيادتها، وحين يتكالب عليها الأعداء، وتحيط بها المخاطر من كل جانب.. فإنها تكون في أمسِّ الحاجة لإعلان النفير، ورفع درجة الاستعداد، واستبقاء الأعين مُفتَّحة، والأذهان حاضرة، والطاقات محتشدة، كما يكون عليها حينئذ أيضًا أن تُسخِّر كلَّ إمكاناتها لتدفع عن نفسها الخطر، وتحافظ علىٰ الأرض والعِرْض، والوطن والمواطن.

هذا هو شأن الأمم الحيَّة، القادرة علىٰ استيعاب ما تتلقاه من ضربات مؤلمة، ومجاوزة ما ينزل بها من مِحَن.. لتقف علىٰ قدميها مرة ثانية أقوىٰ عزيمة، وأصلب إرادة، وأكثر فقهًا لسنن النهوض والسقوط.

ولا أظن أن أمة من الأمم تتعرض هذه الأيام لمثل ما تتعرض له أمتنا العربية والإسلامية.. فهي تواجه حربًا ضروسًا، تستهدف عقيدتها، وقِيَمها، ووحدتها، وأرضها، ومقدساتها.. وتُهددها أيضًا في حاضرها ومستقبلها، حتىٰ تاريخها لم يسلمْ من محاولات التشويه والتزييف، وسوء التفسير والتأويل!!

فمن فلسطين وغزة الأبيَّة، إلىٰ العراق، واليمن، وتونس، وليبيا- والقائمة تطول!!- ومسلسل التشريد والقتل والإبادة لم يتوقف، بل يزداد شراسة كلما انتهك حرمة بلد مسلم، وتنفتح شهيته كلما سال الدم المسلم.. وما أرخص تلك الدماء الزكية علىٰ أعداء الله! وما أهونها عند كثير من المسلمين!

يرافق هذا ويتكامل معه مخططاتٌ تضرب في الإسلام، عقيدةً وفكرًا، وتثير الشكوك حوله، وتسخر من النبي ﷺ وسُنَّته، وتعمل علىٰ تفكيك الأسرة المسلمة وتمزيقها، وزعزعة ثقتها في قيمها وثقافتها.. ليتحلل المجتمع بعد ذلك، ويفقد مناعته وأصالته، وتنعدم عنده القدرة علىٰ الصمود والتحدي، وبالتالي يكون قابلًا للاستضعاف والاستخذاء!

والحال هذه، فإن المسلمين محتاجون إلىٰ الوعي بما يمكن أن نسميه «فقه المواجهة» ، وإلىٰ إدراك أبعاده ومرتكزاته، أي: كيف يواجه المسلمون ما يُحاك ضدهم من مخططات ومؤامرات؟ وكيف يحافظون علىٰ دينهم وأرضهم ووحدتهم وأحلامهم؟ وإذا كانت هذه المخططات والمواجهات قد فُرضت عليهم رغمًا عنهم- وصارت قَدَرًا لا مفرَّ منه- فكيف يمكن دفع خطرها، وإبطال تأثيرها؟

وقبل أن ندخل في عمق الموضوع، ومحاولة الإجابة علىٰ الأسئلة التي طرحناها توًا، نلفت النظر إلىٰ أمرين اثنين، أرىٰ أنهما مدخل ضروري بين يدي الحديث:

أولًا: إن المسلمين لم يكونوا في يومًا من الأيام دعاة حرب وسفك دماء وتخريب، بل كانت حضارتهم- وهم في أوج قوتهم- حضارة رحمة وعدل وعلم ومعرفة، تمامًا مثلما هي حضارة قوة وتقدّم وفتوحات.. كانت حضارة تبسط يدها بالمودة والرحمة، وترفض التمايز والظلم بسبب الدين أو اللون أو الجنس أو العرق.. تقيم الحق ولو علىٰ أبنائها، وتأبىٰ الظلم ولو كان مُوجَّها ضد أعدائها، حتىٰ أولئك الذين لا يتورعون منهم عن استخدام أقذر الأساليب ضد الإسلام وأهله!

فخصومة المسلمين مع الناس- إن وُجدت- خصومة شريفة، لا غدر فيها، ولا خيانة معها؛ لأنهم قد تربوا علىٰ قِيَم (الحب في الله، والبغض في الله، وأيضًا العدل مع الناس جميعًا).. لا يحبون أو يكرهون بسبب هوىٰ أو عصبية أو شهوة.. بل حبهم وكرههم محكومٌ بضوابط وقيود، بحيث لا يخرجون في حالة الرضا أو السخط عن الحدود التي شرعها الله وجعلها شرطًا لتستقيم مسيرة الإنسانية، ولتظل راية الحق والعدل ترفرف فوق ربوع المعمورة[1].

---

(1) لقد شهد كثير من المستشرقين المنصفين علىٰ (التسامح) الذي كان طابعًا ثابتًا لفتوحات المسلمين، وقارنوا بينه وبين (الهمجية) التي كانت سمة راسخة في حروب الغرب، خاصة في عدوانه علىٰ المسلمين في الحروب الصليبية وغيرها، فيعرض لنا غوستاف لوبون في صورة إجمالية ما تميزت به فتوحات المسلمين، فيقول: «كان يمكن أن تُعمِيَ فتوحُ العرب الأولىٰ أبصارَهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويُكْرِهوهم علىٰ اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم، ولو فعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت غير خاضعة لهم بعد، ولأصابهم مثلُ ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية، ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد =

ولعلَّ ما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: 216)، وقوله أيضًا: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (الممتحنة: 8، 9)... يلخِّص لنا طبيعة العلاقة التي تحكم المسلمين بغيرهم، ويؤكد ما ذهبنا إليه.. فالعداوة والقتال إنما هما كُرْهٌ واستثناء، وأمْرٌ يُضطر إليه المرء حين لا تكون ثمة جدوىٰ من أية وسيلة أخرىٰ لإحقاق الحق، ودفع الظلم والعدوان.. وهذا هو الأصل الذي رجَّحه العلماء المحقِّقون.

ومن العجيب في هذا المقام، أن الآيات القرآنية استخدمت لفظ (البر)[1] في سياق

= أدرك الخلفاء السابقون- الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة- أن النُّظم والأديان ليست مما يُفرض قسرًا، فعاملوا أهل سورية ومصر وإسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوىٰ جزية زهيدة- في الغالب- إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقا، في مقابل حفظ الأمن بينهم.

فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا مثل دينهم». ص: 605.

ثم يتحدث عن سلوك الصليبيين عندما استولوا علىٰ مدينة القدس، فيقول: «كان سلوك الصليبيين حين دخلوا مدينة القدس، غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارىٰ حين دخلها منذ بضعة قرون. قال كاهن مدينة لوبوىٰ (ريموند داجيل): حدث ما هو عجيب بين العرب، عندما استولىٰ قومنا علىٰ أسوار القدس وبروجها، فقد قُطعت رءوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم! وبُقرت بطون بعضهم، فكانوا يُضطرون إلىٰ القذف بأنفسهم من أعلىٰ الأسوار! وحُرق بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل! وكان لا يُرىٰ في شوارع القدس وميادينها سوىٰ أكداس من رءوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا علىٰ جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوىٰ بعض ما نالوا!». انظر له: «حضارة العرب»، ص: 326، ترجمة عادل زعيتر، طبعة مكتبة الأسرة 2000م.

(1) حدد الأستاذ فهمي هويدي أصولًا خمسة تحكم العلاقة بين المسلمين وغيرهم، إقليميًا ودوليًا، وهي باختصار: 1- وحدة الرابطة الإنسانية، فالناس جميعًا خُلقوا من نفس واحدة. 2- إثبات حق كل الناس في الكرامة. 3- الإقرار بحق الجميع في الاختلاف، واعتبار ذلك الاختلاف من سنن الله الثابتة في الكون. 4- الإسلام يدعو إلىٰ التعاون والتآلف والتعارف بين بني البشر جميعًا. 5- المسلمون ممنوعون شرعًا من مبادأة أحد بالعدوان، فما جاء في القرآن من إشارات إلىٰ القتال، جاء في سياق: دَفْع الفتنة في الدين، وردِّ العدوان، كما في آية سورة الممتحنة رقم 8. راجع البحث القيِّم لهويدي بعنوان «التعاون الدولي والإقليمي في ظل مقاصد الشريعة»، مقدم إلىٰ الندوة السابعة لمستجدات الفكر الإسلامي بالكويت، ونُشر بمجلة «الوعي الإسلامي» عدد (466)، ص: 46، جمادىٰ الآخرة 1425هـ.

رسمها للعلاقة التي يجب أن تكون بين المسلمين وغيرهم ممن لم يعتدي عليهم ولم يمس دينهم وأرضهم بأذىٰ.. ولفظ (البر) يجيء في وصف العلاقات الإنسانية الراقية؛ ولذا فهو مقرون دائمًا بعلاقة الابن مع والديه (بر الوالدين)، التي هي- كما نعلم- أسمىٰ علاقة يرتبط بها الإنسان بعد حب الله سبحانه، فـ(البر) مرتبة تتجاوز الحسن إلىٰ ما هو أحسن وأعلىٰ وأرفع.. وتلك لفتة قرآنية في تنظيم العلاقات الدولية تشير إلىٰ أن هذه العلاقات يجب ألا تقف عند مرحلة كفِّ الأذىٰ وعدم الاعتداء، بل أن تخطو خطوة أرقىٰ من ذلك، وهي التعارف والتعاون علىٰ الخير والحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾(الحجرات: 13).

ومن هنا، فنحن حين نتحدث عن «فقه المواجهة» لا نقصد اعتداءً علىٰ أحد، ولا إرهابًا للغير.. إنما نقصد أولًا وأخيرًا أننا أمة اعتُدي علىٰ دينها، واحتُلت أرضها، وانتُهكت حرمة مقدساتها.. ومن ثم فحقٌّ لها- بل واجبٌ عليها- أن تدافع وتقاوم وتنتصر لحقوقها، وألا تصالح أو تهادن.. فنحن المسلمين لا نسعىٰ لعداوة أحد، ولا نعتدي علىٰ أحد، بل الواقع يشهد- والتاريخ أيضًا- بأننا كنا دائمًا مَنْ تُغتصب أرضه، ويُهاجَم في عقر داره، وتُهان مقدساته، وليس بغائب عنا ما كان في الحروب الصليبية (القديمة والجديدة) من جرائم ومذابح، يصعب وصفها وتخيُّلها، وقلَّ أن نجد لها نظيرًا في التاريخ الإنساني بعامة!.. بينما كانت فتوحات المسلمين عدلًا كلها، ورحمةً كلها، وإنسانيةً كلها..

ثانيًا: إن «**فقه المواجهة**» لا يُعنىٰ بالحرب والقتال وما يتصل بهما فقط، بل ينصبُّ بالدرجة الأولىٰ علىٰ مرحلة ما قبل الحرب والقتال، أي مرحلة تهيئة الأمة وتوعيتها، وحشد إمكاناتها، وتشغيل طاقاتها المعَطَّلة، وترسيخ ثقتها في إسلامها، كمنهج حياة، وسلوك مجتمع، وقانون دولة، وثقافة حوار وتعايش.. وبقدر ما نحسن إعداد الأمة وتربيتها في مرحلة ما قبل الحرب والقتال، فإن النصر حليفنا- بإذن الله- فيما يواجهنا بعد ذلك من محن وشدائد.

كما يُعنىٰ «**فقه المواجهة**» أيضًا بصدِّ الهجمات الشرسة علىٰ القيم الإسلامية،

والوقوف بقوة أمام محاولات التغريب والعَلْمَنة والعولمة؛ لأن القيم الإسلامية تمثل حائط الصدِّ الأساس أمام محاولات الاستهداف، كما تمثل (المناعة الذاتية) للجسد الإسلامي ضد العلل والأوجاع.

ومن ناحية ثالثة، فإن «فقه المواجهة» يهدف إلىٰ إبقاء المجتمع في حالة استنفار دائم، واحتشاد مُنظَّم، ووعي كامل بالمخاطر المحدقة، وعوامل القوة والضعف في واقع الأمة المعاصر، فمن شروط النهضة والتغيير أن نفهم الواقع الذي (نعيشه) كما هو، بآلامه وأحزانه وأوجاعه، حتىٰ نستطيع أن نصل إلىٰ الواقع الذي (نريده)، بآماله وأفراحه.. وإن أية محاولة للإصلاح لا تنطلق من فهم الواقع واستيعاب خرائطه المتشابكة والمتداخلة، فإنها محاولة تنبني إما علىٰ تمنِّيات فارغة وإما علىٰ أحلام كاذبة، وكلاهما لا محلَّ له في النهضة المنشودة.

* معالم ومرتكزات :

يمكننا القول بأن «فقه المواجهة» يتأسس علىٰ جملة من المعالم والمرتكزات، التي وإنْ بدا أن الأمة محتاجة إليها في جميع أطوارها وتقلباتها، فلا شك أن الحاجة إليها تكون أعظم في أوقات المحن والأزمات.

ويأتي علىٰ رأس هذه المعالم والمرتكزات ما يلي:

*** مهمة التغيير والإصلاح مسئولية الجميع:**

إن أبرز ما يقوم عليه فقه المواجهة هو أنه يخاطب المجتمع كله، بكافة فئاته وشرائحه وطبقاته، فالتغيير والإصلاح، ودرء المخاطر، ومواجهة التحديات، والنهوض بالأمة، أمانة في أعناق الجميع، حكّامًا ومحكومين.. أغنياء وفقراء.. دعاة ومدعوِّين.. رجالًا ونساءً وأطفالًا، فـ«كُلُّكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته»(رواه البخاري عن ابن عمر)، و«مَن رأىٰ منكم منكرًا فَلْيغيره» (رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري) كما جاء في السنة النبوية.

وليست مهمة الإصلاح قاصرة علىٰ الحكام أو العلماء أو غيرهما، فحديث النبي ﷺ: «بلِّغوا عني ولو آية» (رواه البخاري عن ابن عمر)، لم يترك عذرًا لمعتذر، أو

حُجّة لمتباطئ.. صحيح أن حكام الأمة وعلماءها ومثقفيها دائمًا في مقدمة الصفوف والمسئولية- أو هكذا يجب أن يكونوا!- لكنهم في حقيقة الأمر يقودون الأمة ويوجهونها، ولا ينوبون عنها؛ لأن التحديات المفروضة، وحجم الجهد اللازم لدرئها، يفوق إمكانات أفراد معدودين، أو طبقة من طبقات المجتمع.

فالحكام والعلماء والمثقفون بالنسبة لعملية التغيير ونهضة المجتمع، بمثابة (العقل المدبر)، وهو- رغم أهميته- يفتقر إلىٰ الجسد والجوارح، حتىٰ يمكن تحويل الأفكار والخطط إلىٰ برامج عملية، وواقع ملموس، بحيث لا تبقىٰ الأفكار معلقة في عالم الأحلام والأماني!

وهذا يستدعي بالضرورة أن يعمل العلماء والمثقفون علىٰ الارتقاء بوعي الجماهير، وتبصيرهم بالمسئولية المنوطة بهم، وبالأمانة التي يشتركون في حملها؛ حتىٰ لا تشغلهم ضغوطات الحياة ومشاكلها عن أداء الواجب الذي يتعين عليهم القيام به.

ويوم أن يستشعر كل فرد أنه مسئول، ومطالَب ببذل أقصىٰ ما يستطيع لرفع راية الإسلام ونهضة الأمة، ومن ثم عليه أن يعمل جاهدًا في سبيل تحقيق ذلك.. فإن النصر بفضل الله آتٍ، والفجر قادم، ووعد الله لن يتخلف عن عباده المؤمنين العاملين: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ (الحج).

«قيل لأحد الدعاة بعد محاضرة ألقاها: مضىٰ لكم ثلاثون سنة وأنتم تتكلمون، فماذا صنعتم؟! وكان جواب الداعية مفحمًا حين قال: **وأنتم مضىٰ لكم ثلاثون سنة تستمعون، فماذا صنعتم؟!** وهذا حقٌّ، فإن علىٰ المستمع كما علىٰ المتكلم مسئولية تحويل الكلام إلىٰ عمل، والأفكار إلىٰ وقائع، وإن اختلفت درجة المسئولية»[1].

*** تقوية الصفّ الداخلي للأمة:**

أظن أننا لسنا بحاجة للتدليل علىٰ أننا في الظرف الراهن نحتاج أكثر من أي وقت مضىٰ إلىٰ ما يجمع لا ما يفرِّق.. إلىٰ ما يقوّي لا ما يُضعف.. إلىٰ رصِّ الصفوف،

(1) أين الخلل؟ د. يوسف القرضاوي، ص: 26، مكتبة وهبة، ط 6، 1997م.

وجمع الكلمة، وتقوية البناء الداخلي للأمة، فليس أضرّ على المسلمين من فساد ذات البين، وتنازع الأهواء، ودعوى الجاهلية (العصبيَّة)، وقد سمَّى الرسول ﷺ «فساد ذات البين» بـ «الحالقة»، فقال في حديثه الشريف: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفسادُ ذات البين: الحالقة، لا أقول: الحالقة التي تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين» (رواه أبو داود والترمذي).

لذلك حذَّرنا الله سبحانه من التنازع والفرقة واتباع الأهواء؛ لأن ذلك يذهب بقوة المسلمين، ويجعلهم مطمعًا لمن يتربص بهم، وغنيمة سهلة لمن يتحين الفرصة من وقت لآخر ليضرب ضربته، ويصيب من الأمة ما لا يستطيع أن يصيبه منها في حال قوتها واتحاد كلمتها، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الأنفال).

وفيما يتصل بتقوية الصف الداخلي للأمة، يجب أن نعمل على تحقيق أمرين في غاية الأهمية:

1- ترسيخ الوحدة بين المذاهب والفِرَق والقوميات:

لقد بات من الضروري سدُّ الفجوة التي تتسع بين المذاهب والفِرَق والقوميات في العالم الإسلامي، بفعل عوامل شتى لا مجال للتفصيل فيها في هذا المقام.. فأمام التحديات التي تُفرض على المسلمين جميعًا، ولا تستثني منهم فصيلاً أو مذهبًا، فإننا في أشد الحاجة لمواجهة هذه التحديات إلى وحدة تستوعب في طيَّاتها وثناياها الانتماء المذهبي والعرقي والطائفي.. لنصنع معًا لُحمَة قوية متماسكة؛ لأنه إذا كانت الأمة مهددة في وجودها وثوابتها فلا أقلَّ من أن نكون على مستوى التحدي، ونعمل على تمتين الصفّ الداخلي، والاجتماع على الأصول والثوابت، وطرح الخلافات، وعدم إعطاء الفروع والجزئيات أكثر مما تستحقان.

ولذا من المهم أن تظل قضية الاختلاف المذهبي والطائفي محصورة في قاعات الدرس، تحكمها قواعد البحث العلمي النزيه، بعيدًا عن التعصب وعوام الناس،

وبعيدًا أيضًا عن تحريف الأدلة، أو تحميلها فوق ما تحتمل، وساعتها يكون الاختلاف المذهبي عاملًا من عوامل ثراء الفكر الإسلامي، ودليلًا على حيويته واتساعه لألوان متعددة من النظر والتفكير.. أما حين تتحكّم الأهواء، وتتفرّق السُّبُل وتعلو العصبيات، فإن الاختلاف المذهبي أو الطائفي أو العرقي سينخر في عافية الجسد الإسلامي من داخله، وسيضعف من مقاومته ومناعته أمام الأخطار الخارجية.

لطالما عانت أمتنا جرّاء هذه التصنيفات! ويبدو أنها ستظل أعوامًا أخرى تعاني وتقاسي؛ لأن الاستبداد في الداخل والمؤامرات في الخارج يغذّيان هذه الانقسامات، ويحاولان ما وسعهما الجهد أن يجعلا الفرقة والتشرذم أصلًا وقاعدة، وسدًا منيعًا يقف دون تواصل جاد، وتفاهم مشترك، يعلي مصلحة الأمة والجماعة فوق المصالح الآنية والمذهبية.

وبصورة أشمل، فإن مشروع التفتيت الديني والمذهبي والفكري الذي يُراد ترسيخه في عالمنا العربي والإسلامي.. يجعل من فسيفساء الحضارة الإسلامية، التي انصهرت فيها كل التمايزات الدينية والسياسية والعرقية، وصنعت أجمل لوحة حضارية عرفها التاريخ الإنساني.. يجعل من هذه الفسيفساء ثغرات وخروقات في حائط الصدّ عن هوية الأمة وثوابتها، بعد أن كانت لبنات قوية، تحفظ للأمة تماسكها ووحدتها.

يذكر الأستاذ محمد السماك أن عالمنا الإسلامي يتألف من 190 إثنية قومية، يتحدثون بمئات اللغات واللهجات الخاصة، ويعيشون في حوالي 55 دولة تنتشر على طول 10 آلاف ميل (20٪ من مساحة العالم) من المحيط الأطلسي إلى محيط الباسيفيكي، وهذا يعني - كما يؤكد الأستاذ السماك - أنه مفتوح أمام أمرين لا ثالث لهما: إما الوحدة من خلال الإسلام، أو التشرذم من خلال إثارة الخلافات الإثنية والعرقية واللغوية والمذهبية بين شعوبه.

لقد أدرك أعداء الإسلام المتربصين به هذه الحقيقة، وضربوا على هذا الوتر

الحساس، وبذلوا وسعهم وجهدهم للنفاذ إلىٰ قلب العالم الإسلامي، واستنزاف ثرواته، من خلال هذه الحقائق المتداخلة، التي قد تنقلب في أي وقت- إذا لم نحسن التعامل معها ومزجها في سياق واحد- إلىٰ ثغرات وخروقات يحققون بها أهدافهم وأطماعهم، وينقل الأستاذ السماك عن إحدىٰ الدراسات الإستراتيجية الإسرائيلية قولها: إن التفوق العسكري [الإسرائيلي] لا يمكن أن يكون أبديًا، والتفوق من خلال التحالفات الدولية يخضع لحكم المتغيرات السياسية المتحركة، الثابت الوحيد الذي يمكن أن يحقق الأمن الإسرائيلي علىٰ المدىٰ الطويل وبثبات، هو ضرب الخصم من الداخل، وتقسيمه إلىٰ دويلات قومية وطائفية ومذهبية متصارعة، في مسيرة تواكب التسوية السياسية الإقليمية التي انطلقت من مؤتمر مدريد في عام 1991م[1].

2ـ تصالح الأنظمة الحاكمة مع الشعوب:

لقد مُورِسَ بحق أمتنا شتىٰ أنواع القهر والاستذلال، أو «**الاستخفاف**» حسب التعبير القرآني.. ولا يمكن للأمة أن تدفع عن نفسها وهي منقسمة علىٰ ذاتها إلىٰ أنظمة غاشمة مستبدة، وشعوب مستضعَفة مستذَلة، ولا يمكن أن تقوم لها راية وهي تُستنزَف طاقاتُها، وتتبدد في حروب أهلية وعداوات بَيْنيَّة، حتىٰ لم تعد تعرف العدو من الصديق!

إنني لا أتصور أبدًا أن الأنظمة التي تستأسد علىٰ شعوبها (فقط!) يمكن أن تعمل علىٰ حفظ حقوق الأمة ورقيها ونهضتها، بل سيكون همّها بالدرجة الأولىٰ أن ترعىٰ أطماعها ومصالحها الخاصة، وأن تكبِّل إرادة الأمة، وتضعف المؤسسات ذات النفوذ والتأثير في الجماهير؛ لأن من شأن هذه المؤسسات أن تدافع عن المصالح الوطنية ضد أطماع الداخل والخارج علىٰ السواء! وأن ترفع من وعي الجماهير بهذه الأطماع التي تستهدف تركيعها واستلابها، بما يهدد الأنظمة الحاكمة في شرعيتها- إن كان لها شرعية!- ويدخلها في مواجهة مباشرة مع الشعوب، تضاف إلىٰ مواجهتها وخصومتها مع القوىٰ السياسية والفكرية، وهذا ما تحذر منه الأنظمة الحاكمة؛ لأنها

---

(1) من ندوة مطبوعة بعنوان «الإسلام المستهدَف»، ص: 42- 44، دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1994م.

تحاول أن تجمِّل وجهها أمام الشعوب ولو عن طريق التزييف والتزوير.

إن عبرة التاريخ تؤكد لنا أن دولة الإسلام في الأندلس ما كانت لتندثر، وتصير أثرًا بعد عين.. بعد حضارة استمرت زهاء ثمانية قرون.. لولا تفرق المسلمين، وتشتت كلمتهم، وصراعاتهم الداخلية، حتىٰ إن بعضهم كان يستعين بالأعداء علىٰ إخوانه المسلمين! فأضحوا دويلات ممزقة، وطوائف هشة، لا قوة لهم ولا هيبة.. وهم الذين كانوا بالأمس القريب يدًا واحدة، ودولة فتية، وحضارة زاهرة.. وتلك عبرةٌ لقوم يتفكرون!

* التأكيد علىٰ المرجعية الإسلامية:

لقد جرَّبت أمتنا الإسلامية مناهج متعددة في التربية والثقافة والاقتصاد والاجتماع، من الشرق تارة ومن الغرب تارة أخرىٰ، علىٰ امتداد القرنين الماضيين منذ عصر محمد علي، وبداية الاحتكاك بالحضارة الغربية ومناهجها في الفكر والثقافة والقانون.. فلم تجد الأمة في هذه المناهج سوىٰ مَسْخٍ مشوَّهٍ من البيئة الغربية وإشكالياتها، والتي نحن في غِنيً عنها؛ لأن لنا مقومات وأسسًا تخالف بشكل جذري ما تقوم عليه الحضارة الغربية المادية، التي صاغتها أفكار الإباحية والحيوانية لفرويد وداروِن وغيرهما..

فقد شرع الله سبحانه لنا الإسلام دينًا ومنهجًا وسلوكًا، وتكفَّل سبحانه بحفظه، فلا يناله التشويه والتبديل، وجعله خالدًا علىٰ اختلاف الزمان والمكان.. يلبي مصلحة الإنسان العاجلة والآجلة، علىٰ مستوىٰ الفرد والمجتمع علىٰ حدٍّ سواء، في وسطية واعتدال وتكامل.

إن الإسلام هو الذي يستطيع- بوسطيته، وملاءمته للفطرة الإنسانية، وسلامته من التحريف، وأيضًا لأنه منهج رباني منزه عن أهواء البشر- أن يحشد الطاقات، ويرصَّ الصفوف، ويجعل الإنسان يبذل دمه وماله وولده عن رضىٰ وحب، ورغبة في مثوبة الله، ونصره علىٰ المعتدين الظالمين.

ومن ينظر إلىٰ تاريخ البلاد العربية، وعوامل حضورها الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، يدرك بوضوح أن الإسلام هو الذي بعثها من موات،

وجمعها من شتات، وأقامها من ركود، حتىٰ جعلها تطاول حضارتي: فارس والروم، وتكون «لاعبًا» في الساحة الدولية بعد أن كانت «ساحة» للصراع بين القوتين العظميين، وأقام منها حضارة في الأندلس استمرت زهاء ثمانية قرون، حملت فيها للإنسانية مشاعل الفكر والعلم، وأصبح الإسلام ثقافة وحضارة للعرب حتىٰ لغير المسلمين منهم.

ولذلك نقول: إن محاولة قراءة التاريخ، واستشراف المستقبل، ومواجهة التحديات بعيدًا عن الإسلام، هذه المحاولة بالتأكيد تنظر إلىٰ الحقيقة بعين واحدة، وبالتالي فهي تسقط رصيدًا ضخمًا، ليس فقط من تاريخ الشعوب العربية، بل من واقعها المعيش ومستقبلها المأمول.

علىٰ أنه يجب أن نأخذ في الاعتبار أن الإسلام ليس فقط مكوِّنًا من المكونات الثقافية للأمة العربية، إنما هو أساس انطلاقها، ومصدر وحدتها، وموجِّه مصيرها.

ولسنا بتأكيدنا علىٰ المرجعية الإسلامية، وترسيخ الاعتزاز بها، ندعو إلىٰ الانكفاء علىٰ الذات، ورفض الاستفادة من الحضارات الأخرىٰ والتواصل معها.

لكننا نلفت النظر إلىٰ أن لكل أمة من الأمم خصائص ذاتية، وملامح تشكِّل هويتها، وتصنع ثقافتها وتَميُّزها، وهذا مما لا يجوز التفريط فيه؛ لأن الأمة بدونه تصير مسخًا مشوَّها من غيرها، وتفقد أصالتها وتفردها.

أما المشترك الإنساني العام، الذي أسهم في تشكيله كلُّ حضارة من الحضارات، بحيث لم يعد قاصرًا أو حكرًا علىٰ أمة أو حضارة، فهذا هو محلُّ التواصل والتبادل والتعاون[1].

---

(1) فيما يتصل بالرؤية الإسلامية بشأن التلاقح بين الحضارات، وما يجوز نقله منها وما لا يجوز، يجب أن نفرّق بين نقل العلوم التجريبية- التي هي محايدة وثابتة- وبين فلسفتها وتطبيقاتها- التي تتغير وتتشكّل تبعًا لعقائد كل أمة وثقافتها. وقد عبَّر العلامة النمساوي محمد أسد (ليوبولد فايس سابقًا) عن هذه الرؤية فقال: «فالمعرفة نفسها [أي: العلوم التجريبية] ليست غربية ولا شرقية؛ إنها عامّة بالمعنىٰ الذي يجعل الحقائق الطبيعية عامّة. إلا أن وجهة النظر التي تُرىٰ منها هذه الحقائق وتُعرض، تختلف باختلاف المزاج الثقافي في الشعوب.. [فهذه العلوم التجريبية] تتعلق بملاحظ الحقائق، وبجمعها، وتحديدها، ثم استخراج القواعد المعقولة منها. أما النتائج الاستقرائية.. أي فلسفة العلوم،=

* قدرة الأمة علىٰ المواجهة وردِّ العدوان:

يجب أن نعي تمامًا، وأن نُرسِّخ في عقول الناشئة، أن أمتنا تمتلك من عوامل الصمود والثبات وأسباب النصر والتمكين، ما يجعلها قادرة علىٰ مجابهة التحديات، وردِّ العدوان.. وأن أمتنا قد تمرض لكن لا تموت.. وقد تُهزم لكن لا تُستحق.. وقد يصيبها ما أصاب الأمم السابقة من الضعف والانكسار، غير أنها تظل الأقدر من غيرها علىٰ حشد الصفوف من جديد، وطيِّ صفحة الهزيمة بسرعة لا نظير لها في تاريخ الأمم والحضارات الأخرىٰ.

إن أمتنا الإسلامية تمتلك من المقومات الروحية والمادية ما يجعلها- بفضل الله- قادرة علىٰ تجاوز مأزقها الحضاري وواقعها العلمي والتقني المتخلف.. فهي الأمة التي لديها الوحي الصحيح الباقي؛ لأن الله سبحانه هو الذي تكفَّل بحفظ كتابه الكريم، ولم يرض أن يكل أمره إلىٰ أحد من البشر.. بينما الكتب السماوية السابقة قد نالها التشويه والتحريف، وفُقدت أجزاء كبيرة منها.. وهذا يعني بداهة أن أمتنا هي الأمة الموصولة بالسماء، والمؤهلة للقيام بالخلافة في الأرض علىٰ النحو الذي من أجله خلق الله الإنسان، وسخَّر له الكائنات والأفلاك.

كما أنها أمة استطاعت في غضون سنوات معدودة من بَدْءِ انطلاقها أن تقيم تجربة حضارية وروحية وثقافية؛ ظلّت تبثّ إشعاعها لعشرة قرون ويزيد عبر مراكزها في بغداد والشام والقاهرة وقرطبة والأندلس.. وما زالت لها آثار شاهدة إلىٰ الآن تدل علىٰ المستوىٰ المتقدم الذي أحرزته هذه التجربة الحضارية الفريدة..

ومن ناحية أخرىٰ، فإن العالم الإسلامي يبلغ سكانه مليارًا وربع المليار نسمة، ويجري في تربته الزراعية الخصبة عدد كبير من الأنهار والبحار، إضافة إلىٰ مخزونه

= فإنها لا تُبنىٰ علىٰ الحقائق والمشاهدة فقط، ولكنها تتأثر إلىٰ حد بعيد جدًا بمزاجنا المتأصل فينا، أو بموقفنا الحدسي من الحياة ومشاكلها.. [ومن هنا] فليست دراسة العلوم الحديثة التجريبية هي المضرة بالحقيقة الثقافية في الإسلام، وإنما المضر هو روح المدنية الغربية، التي يقترب المسلم بها إلىٰ تلك العلوم». انظر كتابه: «الإسلام علىٰ مفترق الطرق»، ص: 71، 72، ترجمة د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1984م.

الهائل من البترول والغاز الطبيعي والثروات المعدنية.. وكل هذه الإمكانات المعنوية والمادية تمثّل- في حال توظيفها وتفعيلها- مخزونًا استراتيجيًا للنهوض والانبعاث من جديد، وقاعدة صلبة يمكن البناء عليها والانطلاق منها..

وإذا أخذنا في اعتبارنا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المبشّرة بانتصار الإسلام، والتمكين له في الأرض، وظهور الطائفة المؤمنة علىٰ من عادها ووقف ضدّ منهج الله، مثل قول الله تعالىٰ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور]، وقول النبي ﷺ: «**ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزّ عزيز، أو بذلّ ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلًا يذل الله به الكفر**» (أخرجه الإمام أحمد).

إذا أيقنا بهذا الوعد الرباني، وهذه البشارة النبوية، فإن تأكيدنا علىٰ قدرة الإسلام علىٰ المواجهة والنهوض، هو تأكيد لا ينطلق من فراغ أو تهويمات أو تمنّيات فارغة.. إنما ينطلق من حقائق ثابتة، وتاريخ له جذور ممتدة إلىٰ حاضرنا، كما ينطلق أيضًا من حسابات مادية وأرقام لا تكذب ولا تتجمّل.

*** النقد الذاتي ومحاسبة النفس:**

لقد مرّت أمتنا الإسلامية بالكثير من الأزمات المتلاحقة والمتشابهة عبر مراحلها التاريخية المختلفة، بدءًا من الفتنة بين الصحابة (رضي الله عنهم جميعًا)، والصراع الحادّ بين الأمويين والعباسيين، وما تأسس عليه من الاختلاف المذهبي البغيض، مرورًا بسقوط الخلافة الإسلامية في بغداد، ثم زوال دولة الأندلس بعد صراع الطوائف، ودسائس الملك العضوض، حتىٰ سقطت الخلافة العثمانية، وتحولت الدولة الإسلامية إلىٰ دويلات مُفكّكة، تتناحر فيما بينها ولا تقوىٰ أمام الأخطار الخارجية المتربصة، التي تستهدفهم جميعًا دون استثناء!

وغير خافٍ علىٰ أحد أن السقوط الثاني للخلافة الإسلامية كان مقدمة لما نعانيه

اليوم، من تفرّق الكلمة، وتشتت الصّف، وضياع الهوية، والاستجابة لمحاولات التغريب والعَلْمَنة، وذوبان الشخصية المسلمة في موجات الحداثة والعولمة.

ومع كل هذه الأزمات، التي أخذ بعضها بأيدي بعض، ونقلتنا من سيء إلى أسوأ، لم نجد مَنْ يحسّن دراستها، والوقوف على أسبابها، واستخلاص العبرة منها، بل غفلنا عن إدراك سنن الله (الثابتة) في نهوض الأمم وسقوطها، وسادت «العقلية الاتكالية»، العاجزة عن رؤية الأزمة في جذورها وأصولها، وانتشرت نظرية «المؤامرة»، التي ترمي بالمسئولية (الكاملة) على الآخرين دون توجيه النقد إلى الذات، واستبصار مواطن الضعف، والعمل على سدّ مواضع الخلل، مع أن الضعف الذاتي - أو القابلية للاستعمار كما يُسمّيه مالك بن نبي - يشكّل العامل الأساسي لقبول التأثير من الآخرين، والتجاوب مع مؤامراتهم ومخططاتهم.

ولهذا كان القرآن حريصًا على لفت الأنظار إلى أهمية (العامل الذاتي)، سواء في تحقيق النصر أو حدوث الهزيمة، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾﴾ (آل عمران)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ (الرعد: 11).

ولم يكن بمقدور هذه العقلية الاتكالية أن تتعاطى بفهم وعمق مع ما يعتريها من نكبات، وما يصيبها من أزمات؛ حتى تطمئن إلى عدم الوقوع مرة ثانية في نفس الحفرة، ولا تُلدغ من جحر واحد مرتين[1]، بل عميت عن عبرة الأحداث، وتغافلت عن قراءة التاريخ، الذي من الممكن أن يتكرر إذا ما توافرت الدواعي والأسباب التي كانت من وراء حدوثه أول مرة.

وبذلك فَقَدَ العقلُ المسلم شرطًا مهمًا من شروط البناء الحضاري، واستئناف مسيرة النهضة، ألا وهو «ممارسة النقد الذاتي»[2] بما يستلزمه من حسن قراءة

(1) روى أبو هريرة رضي الله عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ» (متفق عليه).

(2) يخشى البعض من ممارسة النقد الذاتي متذرعًا بحجج كثيرة، منها: أن ذلك يفتح باب النقد لمن يحسنه ومن لا يحسنه، وأن النقد لأفكار بعض العلماء والدعاة قد ينسحب عليهم بالكلية ويكون بمثابة اتهام لهم، وأن هذا النقد قد يستغله خصوم الإسلام في حربهم وشبهاتهم التي لا تنتهي ضد =

التاريخ، واستيعاب أحداثه، بما فيها من انتصارات وانكسارات، واستصحاب العبرة منهما للحاضر والمستقبل.

يشرح الشيخ محمد الغزالي رؤيته لمفهوم «النقد الذاتي» من خلال تاريخنا، وما شهده من صعود وهبوط، ومدٍّ وجزْر، فيقول: «أنا لا أعتبر التتار هم مسقطي الخلافة في بغداد، إن الخلافة أسقطتها من قبل قصورٌ مُترعة بالإثم! مُتخمة بالملذات الحرام! أنا لا أعدُّ الصليبيين هم مسقطي دولتنا في الأندلس، إن المترفين الناعمين هم الذين أزلوا راية الإسلام عن هذه الربوع الخضرة، إن ملوك الطوائف في الأندلس لم يكونوا أبناءً شرعيين لطارق بن زياد، ولا لغيره من الأبطال الذين باعوا الله أنفسهم، فأورثهم الأرضين، إننا نحن قبل غيرنا العقبة الأولىٰ أمام دين عظيم. **إن التحدي الأول يجيء من داخل أرضنا، ثم تجيء من بعده تحديات الأعداء التقليديين.**

وقد نقلتُ في بعض ما كتبتُ حديثًا يجب أن نتدبره مثنىٰ وثلاث ورباع، عن ثوبان ﵁ أن النبي ﷺ قال: «إن الله زوىٰ لي الأرضَ، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكُها ما زُوي (جُمع) لي منها، وأُعطيت الكَنْزين: الأحمرَ والأبيضَ (معادن الأرض وثرواتها)، وإني سألتُ ربي لأمتي ألا يهلكها بِسَنَة عامة (قحط شامل)، وألا يسلط عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم (أجنبيًا) فيستبيح بَيْضَتَهم، وإن ربي قال: **يا محمد، إني قضيتُ قضاءً، فإنه لا يُرَدّ، إني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بِسَنَة عامة، وألا أُسلط عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها أو مَن بين أقطارها (يعني أهل القارات المعمورة)، حتىٰ يكون بعضُهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضُهم بعضًا»** (رواه أحمد، والحاكم وصحّحه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي).

والحديثُ ظاهرٌ في أن مصائبنا من أنفسنا قبل أي شيء، وأنها تجيء ابتداءً من فساد الحكم، كما قال عليه الصلاة والسلام في نهاية الحديث: «وإنما أخاف علىٰ أمتي

=الإسلام وأهله. راجع الرد علىٰ هذه الحجج في "أين الخلل" للدكتور يوسف القرضاوي، ص: 32-37.

الأئمة المضِلِّين، أي: الحكام الفاسدين»[1].

*** *** ***

إن الظرف التاريخي الذي تمر به أمتنا لم يعد يحتمل ترفًا فكريًا، ولا انشغالًا بالفروع والجزئيات، ولا صَرفًا للجهود والطاقات في أمور ليست ذات أولوية.

فهذه المرحلة التاريخية التي نحياها هي- بشهادة كثير من المؤرخين والباحثين- الأصعب والأشرس والأخطر في تجربتها الحضارية؛ لأن الأمة تواجه تجديات ومخاطر في كافة المجالات: الثقافية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وتواجه أيضًا تحديات ومخاطر على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والدولة.

وأمام ذلك كله لا مفرَّ من التنادي والتواصي بالحق والصبر، ولا سبيل إلا بالمرابطة على ثغور الوعي والإدراك، وإلا بالعمل على تبصير شعوبنا بما لها من حقوق، وما عليها من واجبات، وتوعيتها بما يحيط بها من فرص ومخاطر وإمكانات، إضافة إلى العمل على تحصين الأجيال الناشئة ضد تيارات التغريب والعولمة، وبثِّ الأمل في النفوس، وغرس الثقة في نصر الله، وفي وعده الذي لا يتخلّف عن عباده المؤمنين.

عسى أن يصحو النائم، وينتبه الغافل، وينشط الراكد، وعسى أن يتدارك الله سبحانه أمتنا بلطفه ونصره، وما ذلك على الله بعزيز، فهو سبحانه القائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (العنكبوت).

(1) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص: 11، 12، دار الشروق، ط1، 1997م.

نظرة متأنية في معادلة التغيير الاجتماعي والسياسي

لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يمنّ برحمته علىٰ شعوبنا العربية، التي قُهرت لعقود متعاقبة من الزمن، ونُهبت ثرواتها وخيراتها، وارتُهنت خياراتُها لمصلحة قوىٰ خارجية معادية للأمة.. وأن يتداركها بلطفه ومعونته، قبل أن تترددىٰ في مهاوي التهلكة، ويبلغ منها اليأس مبلغه، وتتجه إلىٰ ما يشبه "انتحارًا جماعيًّا" يُقتل فيه الأملُ، بعد أن خبت فيها جذوة الفاعلية والحيوية والحراك الحضاري.

سقطت أنظمة، وذهب رؤساء ظنوا أن حصونهم مانعتهم من "ساعة الحساب" مع الشعوب التي لم يقيموا لها وزنًا، يومًا ما، بعد أن تحولت تلك الشعوب إلىٰ جزء من الجغرافيا أو التاريخ، لا الحاضر الحيّ المتّقد الموّار، فضلًا عن المستقبل المشرق الواعد.

«الزمن» جزء من المعادلة[1]:

المهم أن هذا السقوط المتوالي «الدراماتيكي» لأربعة أنظمة عربية- كانت تبدو أكثر رسوخًا وسيطرةً!- في تونس ومصر وليبيا واليمن (وسوريا في الطريق بإذن الله) في أقل من عام، جعل البعض ممن يتعجّل استكمال مسيرة الإصلاح، يغفل عن

---

(1) للمفكر الجزائري مالك بن نبي معادلة شهيرة في أن الحضارة هي ناتج: الإنسان + التراب + الوقت، وأن تلك المعادلة تحتاج لِمَزْج عناصرها وإحداث التفاعل بينها إلىٰ ما يسميه «مركّب الحضارة» وهو الذي يتمثل في «الدين»، فالدين يصنع من أطراف هذه المعادلة المفردة كيانًا واحدًا ذا فاعلية وحيوية، كما يجتمع الهيدروجين والأكسجين في معادلةٍ، فيتكون منهما «الماء» بفعل القانوني الكيميائي (المركّب الحضاري)، راجع كتابه: شروط النهضة، ص: 45/ 46، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، طبعة 1986م، دار الفكر، دمشق.

وأحب أن أضيف أن «الوقت» هنا يشمل معنيين: المعنىٰ الأول (وهو الشائع) إدراك أهمية الوقت في حياة الأفراد والمجتمعات، فلا يُصرف في اللهو واللعب وتوافه الأمور، أما المعنىٰ الثاني فهو إدراك أن إنجاز معادلة التغيير يحتاج لوقت وصبر وتؤدة؛ لأن العجلة في إنجاز المراحل تؤدي إلىٰ إفقادها الفاعليةَ المطلوبة، بل قد تؤدي إلىٰ عكس المراد!

«عامل الزمن» وموقعه من معادلة التغيير الحضاري المنشود.

بمعنىٰ أنه إذا حدثت بعض المشكلات عقب الإطاحة بالنظام القديم، مثل الانفلات الأمني، أو حدوث أعمال عنف من بعض الفئات، أو تزايد معدلات السرقة والسطو، فإننا نرىٰ البعض يتأفف ويضجر، ويلقي باللائمة علىٰ الثورة، بل يشتط البعض ويزعم أنه لم يرَ خيرًا يستأهل التضحية بدماء الشهداء والجرحىٰ! وكأن الثورة ستصلح في يوم وليلة، أو في بضعة شهور، ما أفسده النظام السابق علىٰ مدىٰ عقود!

ولهؤلاء المتعجلين أقول: يجب ألا تخلطوا بين «التغيير السياسي» و«التغيير الاجتماعي».

* التغيير السياسي يكفي فيه الإطاحة بنظام فاسد ظالم، وإتاحة الحرية أمام نظام وليد يأتي بإرادة الناس ويسعىٰ لتحقيق مصالحهم وطموحاتهم، وهذا أمر قد لا يستغرق وقتًا طويلًا، خاصة إذا تعاونت الأطراف الرئيسية الفاعلة في المجتمع علىٰ الإطاحة بهذا النظام، ثم علىٰ إتمام المرحلة الانتقالية بأسرع وقت وبأفضل صورة.

* أما التغيير الاجتماعي الحضاري فإنه لا يكتفي بتغيير «اللافتات» والأسماء، بل يرمي إلىٰ النفاذ إلىٰ الأعماق والمسمَّيات.. ولا يتم بمجرد الإطاحة بنظام سياسي وإحلال نظام آخر مكانه، وإنما يتطلب وقتًا أكبر، ونَفَسًا أطول، وجهدًا أكثر، وبذلًا وتضحية وصبرًا؛ لأن التغيير الاجتماعي بمعناه العام هو: تغيير العادات والتقاليد والأفكار والمعتقدات في اتجاهٍ غير الاتجاه السائد في لحظة مّا.

هو تغيير يستهدف الجوهر قبل المظهر، المضمون قبل العنوان، النفس قبل الجوارح.

وكم كان القرآن الكريم دقيقًا غاية الدقة- كعادته- وهو يرسي تلك المعادلة التي تمثل «قانونًا حضاريًا ثابتًا» فيما يتصل بالتغيير الفعّال، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11).

فما بالنفس- من معتقدات وقيم وتصوُّرات- هو المستهدَف الأول من التغيير المنشود، وهو الأساس الذي تنبني عليه كل أوجه التغيير الأخرىٰ.

ولـذلك فـإن استعجال إنجـاز التغيير في المجتمـع- مهمـا حسنت نوايا أصحابه المتعجلين- دون إرسائه بشكل عميق، مرتبطًا وقائمًا على تغيير المفاهيم والأفكار ومن داخل الذات، لن يُحدث الأثرَ المرجوَّ من الثورات، التي تعطي فقط- بتغييرها للمعادلة السياسية- «إشارةَ البدء» لعملية التحـول الاجتماعي، وتمثل أولى مراحل الطريق الطويل الممتد، وليست آخر المطاف كما يظن البعض.

علاقة طردية:

وإذا أخذنا في الاعتبار أن شعوبنا العربية والإسلامية تعرضت لما يشبه «غسيل المخ» على مدى سنين طويلة، وبُذلت محاولات كثير لإبعادها قسرًا عن نظام الإسلام، عقيدةً وشريعةً وقيمًا وأخلاقًا وسلوكًا وآدابًا، وأن تلك المحاولات- للأسف- قد قطعت شوطًا كبيرًا، خاصة أنها تمت بأيدي ورعاية بعض المسلمين، ممن كانوا في موضع القيادة والتوجيه التربوي والإعلامي.

إذا أخذنا في الاعتبار كل ذلك، لأدركنا كم هو حجم الجهد المطلوب منا أن نبذله؛ حتى يمكن أن نزيل آثار تلك المحاولات الهدامة أولًا، ثم نثبِّت بدلًا منها القيمَ والمفاهيم والآداب الإسلامية.

ويمكننا أن نصوغ تلك العلاقة في معادلة أكثر وضوحًا، فنقول: إن الجهد المتعيَّن والزمن المطلوب لإنجاز التغيير الاجتماعي المنشود، يتناسبان طرديًّا مع حجم الفساد والإفساد الذي ضرب أطنابَه في جنبات المجتمع ومجالات الحياة كافة.

فعملية تغيير المجتمع، ونزع أرديته القديمة البالية، وإلباسه لباسَ التقوى والانسجام والتوازنِ بين معتقد النفس من الداخل وسلوك الجوارح من الخارج.. ليست بالأمر الهين، الممكن إنجازه بنفس سرعة الإنجاز في المستوى السياسي الذي قد لا يُعنى كثيرًا بأخلاقيات الناس وضمائرهم ومعتقداهم، طبعًا إلا من حيث مطابقة تلك المعتقدات والأفكار مع مصلحته هو، ومادامت لا تتزعزع قبضته وسلطته!

ولإدراك صعوبة عملية تغيير المجتمعات ونقلها من حال إلى حال، خاصة مع وجود مثبطات ومغريات وعوائق لا حدود لها- داخليًّا وخارجيًّا- أمام مشاريع

الإصلاح الجادة.. نشير- بإيجاز- إلىٰ أن النبي ﷺ ظل يدعو قومه في مكة ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة، مستخدمًا ما توافر له من وسائل متعددة، من الترغيب، والترهيب، والحوار، والمجادلة، مع ملاحظة أنه ﷺ توافرت له من الصفات والمهارات ما لم ولن يتوافر لأحد مثله؛ لأنه ﷺ أكرم الخلق علىٰ الله.. ومع ذلك لم يؤمن معه إلا القليل.. وهذا يدلنا إلىٰ أي مدىٰ يكون تغيير النفوس والأفكار والمعتقدات صعبًا وشاقًّا.

بل إن يوم القيامة يأتي النبي ومعه الرجل، أو الرجلان، أو الرهط، بل يأتي من ليس معه أحد، كما صح في الأحاديث النبوية الشريفة[1].

ولذلك ليس من الصواب أن يتصور أحد أنه يستطيع أن يقطع شوط التغيير الاجتماعي في يوم وليلة أو شهور قليلة، كما هو الحال في مسألة تغيير النظام السياسي.. بل يجب أن ندرك بوضوح- بالإضافة لـ«عامل الزمن»- أننا لن نستطيع أن نحدث هذا التغيير المنشود ما لم تتكاتف أعمال وجهود وأهداف أجهزة الإعلام والتثقيف والتعليم والتقنين في هذا الاتجاه.

وقديما قال الشاعر:

متىٰ يَبلُغ البُنيانُ يومًا تَمامَه ... إذا كُنت تَبنيهِ وغَيرك يَهدِمِ

إننا نحتاج- ضمن أولوياتنا العاجلة- إلىٰ النهوض بخطابنا الديني والتربوي والإعلامي، وإلىٰ إعادة صياغة وتأهيل كل من يتصدرون منافذ الفكر والتوجيه والإدارة، بحيث نوجد خطابًا عامًّا في المجتمع، عبر كل الأطر والوسائل، يهدف إلىٰ

---

(1) وردت روايات كثيرة في هذا المعنىٰ، منها رواه الإمام أحمد وابن ماجه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيُدْعَىٰ قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لا، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُدْعَىٰ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: يَقُولُ: عَدْلًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (صحَّحه الألباني).

ترسيخ قيم النهوض والفاعلية والحيوية الحضارية، ويعرف في الوقت ذاته كيف يجمع في تمازح وتكامل بين القيم والثوابت الإسلامية وبين المنجزات الحضارية، التي هي- في الحقيقة- إرث إنساني مشترك أسهمت فيه كل الأمم والحضارات بصورة أو بأخرىٰ.

شعوبنا بخير:

وإن مما يبشر بالأمل، ويُهدئ من الرَّوْع، أن شعوبنا بحمد الله مازالت علىٰ خير كثير، وأنها- رغم المحاولات المضنية الخبيثة التي بُذلت- في شوق إلىٰ إسلامها، وإلىٰ تحكيمه في واقع الحياة، يكفي أن نراجع نتائج الانتخابات في البلاد العربية بعد «الربيع العربي»، والتي فاز الإسلاميون بأغلبيتها، رغم حملات التشويه و«القصف الإعلامي» المتواصل.

إن شعوبنا تحتاج فقط إلىٰ حسن التوجيه والدعوة، وإلىٰ الصبر والأناة والرفق، وأن نغادر مرحلة الشعارات والأفكار العامة والتأصيل النظري إلىٰ مرحلة التطبيق والبرامج والخطط التفصيلية، ونثبت لهم عمليًا أن الإسلام فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، ومصلحتهم العاجلة والآجلة.

شعوبنا فيها خير كثير وطاقات كامنة، تحتاج إلىٰ من يستخرجها ويوظفها؛ حتىٰ تقطع «الفجوة الحضارية» التي حدثت لها في القرنين الأخيرين خاصة، وحتىٰ تكون مصونة الحقوق علىٰ المستوىٰ الدولي، لا يقدر أحد علىٰ طعنها في قيمها وثوابتها، ولا علىٰ إهانة مقدساتها واغتصاب أرضها.



تغيير المنكر.. أيُّ تغيير؟ وأيُّ منكر؟

لطالما أثار موضوع «تغيير المنكر» إشكاليات متعددة، ونقاشًا متجددًا في الفكر الإسلامي، وشغل مساحات واسعة منه، قديمًا وحديثًا، ومثَّل إحدىٰ المسائل المهمة التي دار عليها وارتبط بها ظهورُ انقساماتٍ فكرية وحركية علىٰ السواء.

ذلك أن موضوع «تغيير المنكر» ليس موضوعًا فكريًّا منبت الصلة بالواقع، بل هو وثيق الصلة به، ويصب في القلب منه. ولم لا؟! وهو يهدف إلىٰ تغيير هذا الواقع وتبديله، أيًّا كانت الصورة التي يطمح إليها، والوسيلة التي يسلكها.

ودائمًا تكون الأفكارُ التي لها صلة بالواقع، وليست مجرد تمارين عقلية وتوهمات منظِّرين، ذاتَ طابع خاص، إذ يتعدىٰ أثرها «عالمَ الأفكار» إلىٰ «عالمِ الأشياء»، وربما يقلبه رأسًا علىٰ عقب.

ولا شك أن موضوع «تغيير المنكر»، موضوع متشعب الجوانب، وله مداخل متعددة يمكن أن نعالجه من خلالها، كما أنه يتماسّ مع عدة أبعاد: فقهية، ومعرفية، واجتماعية، ونفسية، وتاريخية، تفرض علىٰ الباحث أن يتطرق إليها، أو يضعها في اعتباره علىٰ الأقل، لاسيما إذا كنا بصدد الحديث عن تغيير إيجابي فعّال، ولسنا بصدد الحديث عن «مجرد تغيير» قد تكون نتائجه وعواقبه أسوأ بكثير مما كنا نظنه خطأ وخطرًا!

لكني أحب أن أتناول هذا الموضع المتشعب والممتد من خلال التطرق - بإيجاز- إلىٰ أربع نقاط، أحسب أنها تعطي ولو مجرد إشارات مضيئة إلىٰ هذا الموضوع متعدد الأبعاد.

التغيير.. حاجة مستمرة:

لقد اختص الله سبحانه ذاتَه العليةَ بالكمال المطلق، والتنَزُّه عن أية نقيصة، فهو

سبحانه لا يحتاج إلىٰ شيء لأنه خالق كل شيء. واختص سبحانه أنبياءه ورسله بالعصمة؛ لأنهم يبلغون الوحي عنه إلىٰ خلقه، أما من عداهم من سائر البشر، فيجوز في حقهم الخطأ والصواب، والخير والشر.

والإنسان لا يخلو حاله من أحد أمرين: إما من خير يُعان عليه من الله ويوفقه إلىٰ أسبابه، وإما من شر تحرضه عليه نفسه الأمارة بالسوء أو الشيطان الوسواس الخناس. فهو- أي الإنسان- متأرجح بين هذين الحالين؛ لذلك كانت حاجته إلىٰ التوبة والاستغفار ومراجعة النفس والاستدراك علىٰ ما يفوته من خير أو ما يقع فيه من إثم، حاجة ضرورية لا يستغني عنها مادام فيه عرق ينبض.

وإذا كان هذا حال الإنسان الفرد، فإن المجتمع لا يشذ عن هذه القاعدة، فحال الأمم والشعوب لا يخلو من نهضة فتحتاج إلىٰ المحافظة عليها وتأكيدها ودفعها إلىٰ الأمام، أو من تخلف وانحطاط فتحتاج معهما إلىٰ منبِّهات وشواحذ وإلىٰ من يفجر فيها الطاقات المعطلة والإمكانات المهدرة للتغلب عليهما.. ومن هنا كانت حاجة الفرد والمجتمع إلىٰ «التغيير».

وإذا وضعنا نصب أعيننا المغريات والجواذب الكثيرة التي باتت تتنازع عقل المسلم وقلبه ونفسه - علىٰ مستوىٰ الفرد والمجتمع- وأن تلك الشواغل تلح بإصرار واستماتة كل لحظة علىٰ صرفه عن المهمة التي خلقه الله سبحانه من أجلها، حتىٰ أصبحت تقتحم عليه أشد الأمكنة والأزمنة خصوصية به، لأدركنا مدىٰ حاجة الإنسان الشديدة إلىٰ «التغيير» الذي يمنحه أسباب التحصين والمواجهة، ويمده بحبل النجاة وسط هذه الموجات المتتابعة المظلمة من عوامل الهدم والهدر.

فلا يتصور إنسان أنه استغنىٰ عن تجديد نفسه ومراجعة موقفه، ولا تحسب أمة أنها لا تفتقر إلىٰ محاسبة الذات وإعادة النظر في الخطوات والإمكانات والطموحات.. وهذا هو المعنىٰ الأوسع والأشمل للتغيير المطلوب الذي هو حاجة مستمرة.

تغيير المنكر أم ترسيخ المعروف؟

قد ينطلق الإنسان في سعيه لتغيير الواقع المحيط به من موقع الساخط والمتمرد

والقاسي والقاضي، وليس من موقع الناصح والشفيق والرءوف والداعية! ولا شك أن اختلاف هذين الموقعين ليس اختلافًا نفسيًّا وعاطفيًّا فقط، بل هو يستتبع بالضرورة اختلافًا فكريًّا في ترتيب الأولويات وطريقة النظر إلىٰ حجم الأخطاء الحاصلة وأهميتها، واختلافًا سلوكيًّا في الوسائل التي يتخذها لتغيير هذا الواقع.

ومن العجيب أن بعض الدعاة يتخذون من الموقع الأول منهجًا وطريقة، علىٰ العكس تمامًا مما تدلنا عليه سيرة النبي ﷺ في دعوته قومه، وهم الذين كانون مخالفين بالكلية للمنهج الذي يدعو إليه.

ولتتأمل معي تلك الكلمات الأولىٰ- الرقيقة والواضحة في الوقت ذاته- التي خاطب بها النبي ﷺ قومه بني هاشم حين دعاهم بعد أن أُمر بدعوة عشيرته الأقربين، فقال لهم: «إِنَّ الرَّائِدَ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللهِ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا، مَا كَذَبْتُكُمْ، وَلَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ، مَا غَرَرْتُكُمْ، وَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ، إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً وَإِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً، وَاللهِ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلَتُحَاسَبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلَتُجْزَوُنَّ بِالإِحْسَانِ إِحْسَانًا وَبِالسُّوءِ سُوءًا، وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا، أَوْ لَنَارٌ أَبَدًا»[1].

ولذلك لم يكن عجبًا أن امتن الله سبحانه علينا بأن بعث إلينا رسولاً رءوفًا رحيمًا، في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة) فدلّ ذلك أن هاتين الصفتين في مقدمة ما يجب أن يتحلىٰ به الداعية.

فهذا السؤال: بأيهما نبدأ، تغيير المنكر أم ترسيخ المعروف؟ يلفت النظر إلىٰ أن البعض- للأسف- قد لا يرىٰ فيما حوله إلا المنكر، وما هو خطأ ومرفوض، ولا تقع عينه إلا علىٰ الأسوأ في حياة الناس، وهذا يورثه- بلا شك- سخطًا علىٰ واقعه، وربما يأسًا منه، ويؤثر علىٰ الوسائل التي يسلكها والأحكام التي يصدرها.

إن مجتمعاتنا بخير والحمد لله، لكنّ ما تراكم عليها من عوامل الهدم والهدر حجب فيها صفات طيبة، وأطلق العنان للشهوات والمنكرات، ونحن نحتاج في

---

(1) جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، 1/ 51، ط1، 1923، مكتبة الحلبي، القاهرة.

المقام الأول إلى أن نحسن الظن بأنفسنا وبمجتمعاتنا، وإلى أن نتحلى بالصبر والرؤية المتفائلة والنفس الطويل، إضافة إلى بذل الوسع في الدلالة على الخير وإرشاد الناس إليه أولًا، بدلًا من الإلحاح على فكرة التنفير من الخطأ والتحذير منه.

فكثير مما نراه خطأ، سينمحي تلقائيًا بمجرد أن نعمل على ترسيخ المعروف، ونرشد برفق إليه، ونفسح المجال أمامه. فمثلًا قد تعلم عن إنسان أنه سيئ الخلق، وعاق لوالديه، ويؤذي جيرانه، ويأتي المنكرات.. فإذا أنت شغلت نفسك بتحذيره من كل صفة ذميمة من هذه الصفات، فستحتاج وقتًا طويلًا، وربما ينفر منك ولا تنفع معه النصيحة! أما إذا أحسنت له القول، وأقمت معه جسرًا من المودة والتآلف، ودللته برفق على سبل الخير من قراءة القرآن ومجالسة الصالحين ولزوم دروس العلم، فإن درجة تأثره تكون أكبر، والوقت اللازم ليتخلص من الصفات الذميمة سيكون أقل.. وهكذا بدلًا من أن تلعن الظلام، أوقدْ شمعة.

ما التغيير المنشود؟

إن التغيير الذي أعنيه في هذا المقام لا يقف عند تصور ساذج بسيط أو صورة وحيدة للمراد منه وهو التبديل[1]، بل يشمل تصورًا مركَّبًا لأن الحياة نفسها مركَّبة، وصورًا متعددة للتغيير، تشمل تقديم النصح والإرشاد والتوجيه، والاستفادة القصوى مما هو ممكن ومتاح، وصولًا إلى ما هو مأمول ومطلوب، مع تنوعٍ في الوسائل والأدوات حسب ما يقتضيه الحال والمقام.

فالتغيير المنشود ليس شكليًّا وإن كان الشكل جزءًا منه، وليس فرديًّا وإن كان الفرد أساسَه ومنطلقَه، وليس سياسيًّا وإن كانت إقامة الدولة سياجَه وإطارَه.

هو في الحقيقة تغيير يستهدف الجوهر قبل المظهر، والمضمون قبل العنوان، والنفس قبل الجوارح، والأخلاق قبل القانون، والمجتمع قبل الدولة. وكم كان القرآن الكريم دقيقًا غاية الدقة وهو يرسي تلك المعادلة التي تمثل «قانونًا حضاريًّا

---

(1) التغيير: عبارة عن تبديل صفة إلى صفة أخرى، مثل تغيير الأحمر إلى الأبيض. والتغيير إما في ذات الشيء أو جزئه أو الخارج عنه. انظر: معجم «الكليات لأبي البقاء الكفوي»، تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري. ص: 294، ط2، 1419هـ 1998م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ثابتًا» فيما يتصل بالتغيير الفعّال، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11).

فتغيير النفس والجوهر هو المستهدَف الأول من التغيير المنشود، وهو الأساس الذي تنبني عليه كل أوجه التغيير الأخرىٰ، وصولًا إلىٰ إقامة الدولة التي تحافظ علىٰ مكتسبات التغيير علىٰ مستوىٰ الفرد والمجتمع، وترد عنها محاولات الكيد والاختراق، وتسعىٰ أيضًا في الوقت ذاته إلىٰ إشاعة هذا الهدي الرباني بين الإنسانية المتخبطة في الظلمات.

ولذلك قلت: إن التغيير المنشود هو «عملية مركبة»، سواء علىٰ مستوىٰ المراحل (الفرد، الأسرة، المجتمع، الدولة)، أو الأدوات (التربوية، الإعلامية، الاقتصادية، القانونية، السياسية).

أما الذين يتصورون وجود مرحلة واحدة للتغيير - بعضهم يركز علىٰ الفرد والأخلاق، وبعضهم يركز علىٰ الدولة والسياسة - أو يتصورون وسيلة واحدة له - مثل الوعظ والإرشاد أو العمل السياسي، وبعضهم يجنح إلىٰ العنف والانقلابات - فإنهم لا يأخذون في اعتبارهم مفهوم التغيير بوصفه مفهومًا مركبًا يتطلب السير بخطوات متوازية في المراحل المتعددة والأدوات المتنوعة، بشرط أن يكون بعيدًا عن العنف والتطرف.

وللشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - كلمات هادية في هذا الباب، حيث يقول: «إقامة دين شيء، واستيلاء جماعة من الناس علىٰ الحكم شيء آخر، فإن إقامة دين تتطلب مقادير كبيرة من اليقين، والإخلاص، ونقاوة الصلة بالله، كما تتطلب خبرة رحبة بالحياة، والناس، والأصدقاء، والخصوم، ثم حكمة تؤيدها العناية العليا في الفعل والترك، والسلم والحرب»[1].

ما المنكر المرفوض؟

هذه نقطة مهمة وأساسية ينبغي أن تكون واضحة ضمن التصور الشامل والمفهوم

---

(1) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص: 112، سلسلة «كتاب الأمة» رقم 1، ط3، 1402هـ قطر.

المركب لعملية التغيير المنشود؛ وقد أدىٰ إغفالها إلىٰ ظهور جماعات العنف المسلح التي كان من الواضح أنها تحلَّت بقدر كبير من الإخلاص والحماسة، لكن غاب عنها – للأسف – عمق التجربة وحسن الفقه[1].

فلا شك أن طريق الإصلاح أمامه في مختلف مجالات الحياة عقبات كثيرة، تراكمت عبر أزمنة مختلفة، وتحت وطأة خطط لم تكل عن إضعاف المسلمين ومحاصرتهم في دائرة التراجع والانحطاط.

وأمام هذه التحديات الكثيرة والمتغلغلة في المجتمع، إنْ لم ندرك الأولويات المطلوب إنجازها، والخطوات العاجلة التي لا تحتمل تأخيرًا، والوسائل الفاعلة التي تحدث تراكمًا إيجابيًّا دون آثار جانبية، والمنكر الأشد ضررًا ولا يمكن السكوت عنه.. فإننا قد نصنع بأيدينا – ومن حيث لا ندري – عقبات جديدة تضاف إلىٰ ما هو حاصل علىٰ أرض الواقع!

ومن هنا، يمكن أن ألخص أهم الشروط والقواعد والضوابط التي وضعها العلماء عند التصدي لتغيير المنكر، فيما يلي[2]:

* ليس كل ما قد يتصوره البعض منكرًا لأول وهلة هو منكر في الحقيقة، ولا بد من مراعاة مساحات الاجتهاد والتنوع في الفقه الإسلامي، وأن يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.

* وليس كل أمر راجح، مطلوبًا أن نجمع الناس عليه، سواء تعلق الرجحان

---

(1) يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه الرائع «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية»: إن المدافعين [عن الإسلام] لا ينقصهم غالبًا الحماس والإخلاص، وإنما ينقصهم عمق التجربة وحسن الفقه. إنهم يحسبون أن حال المسلمين اليوم وليد عِلل عارضة، ومن السهل إزالتها في أيام معدودات.. وما علىٰ الشباب إلا أن يتقدم ويقاتل ويحطم ما أمامه من عوائق، وسوف يبتسم له النصر بعد مرحلة أو مرحلتين، وهذا الاستعجال كان وراء متاعب كثيرة، وخسائر ثقيلة للدعوة الإسلامية، بل ربما زاد خصومها تمكينًا وضراوة، ص: 17، المصدر السابق.

(2) يمكن مراجعة المزيد عن هذه الشروط والقواعد والضوابط وغيرها في: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» ابن تيمية، «دعاة لا قضاة» حسن الهضيبي، «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» د.يوسف القرضاوي، «الحاكمية في الفكر الإسلامي» د.حسن لحساسنة، «القواعد الشرعية ودورها في ترشيد العمل الإسلامي» د.محمد أبو الفتح البيانوني.

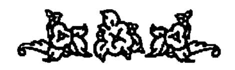
بالفعل أو بالترك؛ ولهذا رفض الإمام مالك دعوة الرشيد أن يحمل الناس علىٰ كتابه «الموطأ»، وأرسىٰ الفقهاء قاعدة أصيلة في هذا الباب وهي «لا إنكار في المختلف فيه» ضمن «فقه الخلاف».

* وليس كل منكر غيرِ مختلف فيه، يمكن تغييره في التوّ واللحظة، فهناك اعتبارات أخرىٰ مثل القدرة علىٰ تغييره، وتحديد المخاطَب بهذا التغيير، وهل يتعارض تغييره مع ما هو أكثر ضررًا منه، وهنا تَرِد قاعدة «ارتكاب أخف الضررين» ضمن «فقه المآلات» و«فقه التدرج».

* وليس كل مسلم مخاطَبًا بوسائل التغيير الثلاثة المعروفة الواردة في الحديث النبوي: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ» (رواه مسلم) ، فهناك من يخاطَب بوسيلة التغيير باليد، مثل الحاكم أو الدولة تجاه المواطنين، والأب تجاه أبنائه. ومن يخاطب بوسيلة الإنكار باللسان وهم العلماء الذين يجمعون بين «فقه النص وإدراك الواقع»، وكذلك يخاطب بها كل مسلم يحسن معرفة مسألة جزئية فيتصدىٰ لها، لحديث النبي ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» (رواه البخاري). أما وسيلة الإنكار بالقلب فتبقىٰ متاحةً لكل مسلم يرىٰ منكرًا لا يملك تغييره بغير القلب لأي سبب كان، وذلك كله ضمن «فقه المتاح».

* ثم من قبل هذا ومن بعد، ينبغي- كما أشرنا- أن نقدم الدعوة والتربية والتوجيه أولًا، وأن نسلك من الطرق والوسائل أيسرها وأكثرها حكمة ومناسبة، وأن ندرك أننا مطالبون ببذل الجهد واستفراغ الطاقة، ولسنا مكلفين بتحقيق النتائج والغايات.

وأن نفهم جيدًا أننا أمام واقع معقَّد ومركَّب ومتشابك، لا تكفي لتغييره كلمة مخلصة، ولا ضربة حازمة، وإنما يتطلب سعيًا حثيثًا يواصل الجهد بالليل والنهار علىٰ هدىٰ وبصيرة، وبالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.



الحِوار.. فريضةٌ غائبة حانَ أذانُها

ما أكثرَ الفرائضَ الغائبة في حياتنا! وما أشدَّ حاجتَنا إليها!

و«الحوار» إحدىٰ تلك الفرائض التي انزوت عن سمائنا، مع غياب شمس حضارتنا وأُفول نَجمها، حتىٰ رأينا هذا الضيق بين أبناء الأسرة الواحدة، فضلًا عن أبناء المجتمع الواحد، ناهيك عن أبناء الوطن الواحد والحضارة الواحدة.

لعَمرُكَ ما ضَاقتْ بلادٌ بأهلِها ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تَضِيقُ

ولا أعني بـ«فريضة الحوار» أنه من قبيل تلك الفرائض التي حدَّدتها النصوص وصرَّحت بها، بل أعني أنه من قبيل الأسس والركائز والمفاهيم التي رسَّخها الإسلام وحضَّ عليها، بحيث غَدَتْ كأنها فريضة من فرائضه، أو أصبحت سِياجًا ضروريًّا لإقامتها.

إن الله سبحانه- وهو الربُّ الأعلىٰ، وخالق الكون، ومالِكُ أمرِه- قد أجرىٰ حوارًا مع الآبق إبليس، علىٰ النحو الذي سجَّله القرآن الكريم بتفصيل في أكثر من موضع.. مع أن إبليس قد استحق العقوبة بمجرد الامتناع عن تنفيذ الأمر بالسجود لآدم، والعصيانُ حينئذ سببٌ كافٍ لرفض الحوار من الطرف الأعلىٰ، الذي بإمكانه أن يعاجل العاصي بالعقوبة المستحقة.

لكن الحوار هنا في قصة الآبق إبليس إنما هو تفضُّلٌ من الله سبحانه ليقيمَ عليه الحجة، ويقطع عليه الأعذار، كما أنه توضيح وتعليم لأممٍ آتيةٍ من المهم أن تطلع علىٰ المزيد عن إبليس، وكيف يفكر، ولِمَ يعاند؛ لتكون علىٰ حذر وبيِّنة.

والأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كان الحوار رسولَهم في البلاغ والبيان والتواصل مع أقوامهم، ولم يَضيقوا ذَرْعًا بالردِّ علىٰ شُبهة محاوِر، أو مناكفة مجادِل، بل كان نَفَسُهم في الحوار والنقاش أطولَ من خصومهم الذين خشَوا علىٰ أنفسهم- ولا أقول علىٰ غيرهم فحسب- من مجرد الاستماع لآيات الله تتلىٰ، فصمُّوا آذانهم وتواصَوا بين بعضهم البعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ (فصلت: 26).

وكان حريًّا بهم- لو يملكون ما يدافعون عنه باقتناع وتجرُّدٍ- أن يستمروا في الحوار حتىٰ يتضح أيُّ الفريقين أهدىٰ سبيلًا، لكنهم عجزوا حتىٰ عن الحوار..

وقد رأيت أن يكون مدخلي لـ «الحوار» هو تناول معنيين من المعاني اللغوية للكلمة، وهما معنيان: الجمال والنصرة.

الحوار.. جَمَال:

إذا كان من المعاني اللغوية لمادة «حور» ما يدل علىٰ الجمال، سواء جمال العين، أو جمال المرأة بصفة عامة، حتىٰ وصف القرآن نساءَ الجنة بالحُور فقال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾(الرحمن). وجاء في «المفردات»: «الْحَوَرُ: قِيلَ ظُهورُ قليلٍ من البَياضِ في العَيْن مِن بين السَّواد، وأَحْوَرَتْ عَينُه وذلِك نهايةُ الْحُسْنِ من العَين»[1]. وفي «لسان العرب»: «وَالْحَوْرَاءُ: الْبَيْضَاءُ، لا يَقْصِدُ بِذَلِكَ حَوَرَ عَيْنِهَا. وَالأَعْرَابُ تُسَمِّي نِسَاءَ الأَمْصَارِ حَوَارِيَّاتٍ لِبَيَاضِهِنَّ»[2].

أقول: إذا كانت هناك صلة بين الحوار والجمال، فلا شك أن دلالة الحوار علىٰ جمال العقل أَوْلىٰ من دلالته علىٰ جمال الظاهر، فإن العقل الجميل هو الذي يبحث عن الحقيقة، ويقبل النقاش والحوار، ويُفسح المجال لما يخالفه، ولا يُعرِض عما لا يقبله مما يجوزُ فيه التعدد والتنوع.

أما العقل الذي لا يكون هذا وَصْفَه، فإن في تسميته «عقلًا» شكًّا من الأساس!

الحوار.. نُصْرَة:

ومن معاني «حور» أيضا: النُّصْرَة، لذلك سُمي أنصارُ نبيِّ الله عيسىٰ ابن مريم: حواريين، جاء في «المفردات»: «الحَوَارِيُّونَ: أَنْصَارُ عِيسىٰ ﷺ.. وقوله ﷺ: «الزبير ابنُ عمَّتي وحَوَارِيِّ»[3]، وقوله أيضًا: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وحَوَارِيَّ: الزبَيرُ»[4]؛ تَشْبِيهٌ

(1) «المفردات في غريب القرآن»، الراغب الأصفهاني، ص: 1/ 178، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، بدون تاريخ.

(2) «لسان العرب» لابن منظور، من «المكتبة الإسلامية» علىٰ موقع «إسلام ويب».

(3) روىٰ أحمد في مسنده، في «أول مسند المدنيين ﷺ أجمعين» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ وَابْنُ عَمَّتِي».

(4) رواه البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله.

بِهم في النُّصْرَةِ، حيثُ قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: 52)[1].

قلتُ: نعم، الحوار نصرة، لكنها نصرة الحق والحقيقة والموضوع، لا نصرة الذات والشخص والنفس، ويوم ينقلب الحوار إلىٰ نصرةِ غيرِ الحقيقة فإنه يصير لَجَاجَةً وخِصامًا، وهي من ملحقات المناظرة لا المحاورة. فالحوار المثمر يتطلب التجرد عن حظوظ النفس، وهذا لا يكون إلا إذا كان الهدف نصرة الحق لا الذات.

وهل صارت «حواراتنا» علىٰ المستوىٰ الاجتماعي والسياسي، بلا جدوىٰ- حتىٰ فقدت كلمة «الحوار» معناها ومصداقيتها، وصارت دلالةً علىٰ استهلاك الوقت والجهد- إلا لأن الانتصار فيها كان للنفس لا الحقيقة؟!

الْحِوَار.. طَرَفَانْ:

ومما يقتضيه الحوار بطبيعته أنه يكون بين طرفين- أو أكثر- يتبادلان النقاش والرأي، ويعرض كلٌّ منهما ما لديه؛ سعيًا لجمع الفائدة من كلا الاتجاهين، والوصول إلىٰ أفضل خلاصة.

وحتىٰ حديث الإنسان إلىٰ نفسه، يصحُّ أن يُسمَّىٰ حِوارًا، إذا قابل الإنسان بين الأفكار المختلفة، وأجرىٰ نقاشًا بينها. وهنا يكون التعددُ المطلوب في الحوار، تعددًا بين الأفكار وليس بين الذَّوات.

فالحوار قرين التعددية والإقرارِ بالتنوع، ولا يُتصوَّر «الحوار» بوجود طرف واحد، إلا إذا كان تَلْقِينًا- كما في معظم مدارسنا وجامعاتنا، للأسف- أو كان خداعًا للنفس، كما هو حال «الحُوارات السياسية» التي يدخل فيها كلُّ طرف وهو لا يستمع إلا لمطالب نفسه، وكأنه وحْدَهُ بالقاعة!

الحوار يستلزم ابتداءً التسليمَ بوجودِ الآخر، وحقِّه في صواب الرأي ومشاركة الفعل. فإذا اعتقد الإنسان أن غيره لا يقول صوابًا أبدًا، أو لا حقَّ له في العمل وإثبات الذات، فإنه تلقائيًّا يرفض الحوار، أو يتخذه سبيلًا لمضيعة الوقت واستهلاك الجهد،

(1) «المفردات»، الأصفهاني، ص: 1/ 178، بتصرف يسير.

لا سبيلًا إلىٰ بناء الجسور، وتفادي الصدام.

إن من يرفض التعددية والتنوع، ولا يرىٰ إلا ذاته ومطالبه، ويرفع شعار: «رأيي صواب لا يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ لا يحتمل الصواب»، هل يؤمن بالحوارِ وسيلةً للتفاهم؟! وهل إذا شارك في «جلسات الحوار» سيكون حريصًا علىٰ إنجاحه، ومستعدًا للتنازل عن بعض النقاط للوصول إلىٰ حل؟!

الحوار.. توليدٌ للأفكار(1):

فضلًا عن كون الحوار هو الوسيلة المثلىٰ- والوحيدة- لإدارة الخلاف والاختلاف دون خسائر، فإنه أيضًا إحدىٰ الوسائل المهمة لِقَدْحِ زِنَادِ العقل، وتوليد الأفكار، وعَصْف الأذهان، والتحريض علىٰ التجديد والابتكار.

جرِّبْ أن تفكِّر وحدك في موضوع ما، ثم أَدِرْ حوارًا جماعيًّا حول ذات الموضوع، ثم انظر أيَّ الطريقتين تخرج منهما بخلاصات أعمق وأفضل.

إن خير طريقة لتوليد الأفكار، أن تجعل الفكرة تتلاقح مع أفكار أخرىٰ، فإذا أنت أدرتَ حوارًا داخليًّا مع نفسك، تلاقحت الأفكار بدرجة ما، لكن إذا تحاورتَ مع الآخرين، صارت الفرصة أكبر للتعرف علىٰ عوالم أخرىٰ، ومداخلات وحلول أكثر.. وكفىٰ بهذه فائدة للحوار!

ولا شك أن نجاح هذه العملية يستدعي أن تَنتقي من تحاورهم وتستطلع آراءهم، بأن يكونوا من ذوي الخبرة، والقابلية للتواصل مع الآخرين بأَرْيَحِيَّة وإخلاص.

الحوار.. ثِقة:

إذا كان الحوار يهدف- ضمن ما يهدف إليه- إلىٰ إقناع الآخرين بوجهة نظر معينة، فإن هذا يعني بالضرورة أن يكون المحاوِر علىٰ ثقة تامة بما يعتقد ويحاور الآخرين فيه. ولذا، فالشخص الذي يعتمد في عقيدته وبناء مفاهيمه علىٰ التقليد، تجده يخشىٰ من الحوار، ولا يستسلم بسهولة لعرض آرائه أمام الآخرين، خشيةَ

(1) استفدت هذا المعنىٰ من المفكر الفلسطيني د. أحمد صدقي الدجاني- رحمه الله- لكن غاب عني اسم كتابه.

انتقادها، مما يُلجِئه إلىٰ الانزواء، والتمادي في التقليد والتبعية.

لكن الدخول في حوارات ونقاشات مفتوحة، يجعل المرء أكثر ثقةً بما لديه، وأكثر قدرةً علىٰ التحاور مع الآخرين بشأن أفكاره.

ولما كان القرآن الكريم تنزيلَ ربِّ العالمين، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت)، فإنه لا يخشىٰ من محاورة الآخرين، ولا من عَرْضِ آرائهم بصدق وأمانة للرد عليها وتفنيدها، بل يرفع شعارًا لم يُسبَق إليه، وهو: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ (البقرة:111). وقد وردتْ هذه الكلمة في أكثر من موضع من القرآن، منها عند الرد علىٰ زعم أهل الكتاب أنه ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ (البقرة: 111)، وعند الرد علىٰ من أشركوا بالله و﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ (الأنبياء: 24).

والإسلام بشعاره: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ (البقرة:111)، يغرس الثقة به في نفس المسلم، ويجعله علىٰ يقين جازم وإيمان راسخ، فضلًا عما يشير إليه هذا الشعار من أن «البرهان»- لا السيف- هو طريق الإسلام للإقناع والحوار، والجدال بالتي هي أحسن. ولا تلتفتْ إلىٰ أكاذيب وافتراءات خصوم الإسلام.

من يرفع الأذان؟

كم خسرت أمتنا بسبب غياب الحوار علىٰ مستويات الحياة كافة: التربوية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية، وكم جرَّنا ذلك إلىٰ أنَّ الصدامَ يكاد يكون ثقافة مترسخة حتىٰ داخل الأسرة الواحدة، بل حتىٰ بين الإنسان ونفسه!

فغابَ الصفاء الذاتي، والترابط الأسري، والتماسك الاجتماعي، وحلَّ التناحر والشقاق، وتبعثرت الجهود والطاقات في معارك وهمية، ما كان لها وجود من الأساس لو أنّا اعتمدنا الحوار طريقةً، لا أقول لحلِّ الخلاف، بل لإدارته.

وإذا كان ديننا يُقرُّ ويعترف بالتعددية والاختلاف علىٰ مستوىٰ المعتقَد: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (يونس)، فإن الاعتراف بالتعددية والاختلاف فيما دون المعتقد، هو أيسر وأقل كُلْفَة.

وحينئذ، لا مفر من إدارة هذا التنوع إلا بالحوار، لتتكامل الجهود لا تتعارض، وتتواصل الجسور لا تنقطع.

فعند عدم الحوار، يصبح الطرفان خاسرَيْن، حتىٰ لو كان أحدهما يظن أنه انتصر بسبب أنه أقل خسارة.

إن الحوار ضرورة إنسانية، وركيزة إسلامية، وفريضة غائبة حان أذانُها.. فمن يرفع الأذان، ويجيب النداء؟

يا قومنا، تعالَوا إلىٰ كلمة سواء، فإن الشيطان قد رضي بالتحرِيش بينكم، فاقطعوا الطريق علىٰ حالِقَة الدِّين وحارقة الأوطان..



لأنَّ الإنسانَ صَنعةُ الله

«الإنسان» هو عماد الحضارات.. لكن أيُّ «حضارة» تبقىٰ إذا أريق دم هذا الإنسان بغير حق؟!

و«حقوق الإنسان» هي من أعظم ما استقر في حضارتنا المعاصرة من منجزات إنسانية.. لكن ما قيمة تلك «الحقوق» إذا أُبيح دم صاحبها وأزهقت رُوحُه بغْيًا وعدوانًا؟!

إذن نحن في هذه القضية- وهي تأكيد حرمة الدماء- لسنا بإزاء قضية فرعية، أو أمر هامشي يمكن أن نتغاضىٰ عنه أو نتجاوزه، بل نحن أمام قضية تمثل جوهرَ قضايا متعددة، وأمام استحقاق تأسيسي تنبني عليه بالضرورة مواقفُنا من تفريعات كثيرة.

فمن يستهين بحرمة الدماء، هل يمكن أن يبني حضارة؟!

ومن لا يعظِّم صَنعة الله، هل يمكن أن يقرَّ لها بحقوق؟!

لهذا، كان التأكيد علىٰ حرمة الدماء مَطلبًا حضاريًّا عمرانيًّا إنسانيًّا مجتمعيًّا، قبل أن يكون فريضة شرعية وواجبًا أخلاقيًّا.

صَنعةُ الله:

إن الإنسان هو ذلك الكائن الذي خلقه الله بيديه، ونفخ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السماوات والأرض جميعًا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وفضَّله علىٰ كثير ممن خلق تفضيلًا.

ومن هنا، كان الاعتداءُ- بغير حق- علىٰ هذا المخلوق المكرَّم، وتلك الصَّنعة المميَّزة من بين الكائنات علىٰ ظهر الأرض، اعتداءً علىٰ أمر الله في الخَلق والتكوين والمشيئة.

بل إن الاعتداء علىٰ النفس والاستهانة بالدماء، حرام علىٰ الإنسان حتىٰ منه علىٰ نفسه وبيده! فكما يَحرم علىٰ أحد أن يعتدي علىٰ أحد، كذلك يحرم علىٰ الإنسان أن يعتدي علىٰ ذاته.

وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل عن المنتحر، الذي يبادر بإزهاق روحه بيده: «بَدَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[1].

فالحفاظ علىٰ الذات، وتحريم سفك الدم، ليس «حقًّا» للإنسان بالمعنى المفهوم من كلمة «حق»، بمعنىٰ أنه يجوز له أن يتخلىٰ عنه أو يهبه لغيره، بل هو "واجب" علىٰ الإنسان، يأثم حين يفرط فيه، حتىٰ لو كان هذا التفريط بيد الإنسانِ نفسِه علىٰ ذاته.. فكيف لو وقع الاعتداء من آخرين؟!

لا تهاون في الدماء:

إن النصوص الإسلامية- من القرآن الكريم والسنة النبوية- الواردة بشأن تعظيم الدماء، أكثر من أن تحصىٰ.

يكفىٰ أن نشير إلىٰ أن الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي جمعت في عقوبة الآخرة بين الدخول في النار، والخلود فيها، وغضبِ الله، ولعنتِه، والعذاب العظيم، هي الآية المتعلقة ببيان عقوبة القتل العمد، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (النساء).

وفي كثير من المواضع استخدم القرآن الكريم كلمة «النفس»، في التحذير من سفك الدماء، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الإسراء)، وقال أيضًا: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: 32)؛ وذلك تأكيدًا منه سبحانه وتعالىٰ علىٰ حرمة «النفس».. مُطلَق النفس.

وكان الأمر بعدم الاعتداء علىٰ النفس مما تواصىٰ به الأنبياء، ومن الوصايا العشر التي وصىٰ بها موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قومَه[2]، ومما ذكره النبي ﷺ بخطبة الوداع[3]، وهي

---

(1) متفق عليه؛ رواه البخاري في «الجنائز»، ومسلم في «الإيمان»، عن جندب.

(2) وردت الوصايا العشر في سورة الأنعام، الآيات 151: 153.

(3) روىٰ البخاري بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا =

الخطبة التي حرص فيها ﷺ علىٰ أن يؤكد معالم الإسلام ويُجملها ويوجزها.

ولم لا تكون لعصمة الدماء تلك المكانةُ الكبيرةُ من بين مقاصد الإسلام وأولىٰ خطايا بني آدم: القتل، حين اعتدىٰ قابيل علىٰ أخيه هابيل بسفك دمه؟!.. ومن ثم، كان علىٰ قابيل وِزْرٌ من كل نفسٍ تُقتل- بغير حق- من بعده إلىٰ قيام الساعة، كما جاء في الحديث الشريف[1].

الدماء تهدم الحضارات:

«الإنسانُ مَدنيٌّ بِطَبعه».. تلك حقيقة مقرَّرة يتفرَّد بها الإنسان من بين الكائنات، وقد أثبتها ابن خلدون في مقدمته، وهي تعني أن الإنسان من شأنه وطبعه أن يألف ويؤْلف، ويعيش في جماعات لا فردًا، حتىٰ يستطيع أن يشيد حضارة، ويرسخ مجتمعًا، ويقيم بنيانًا... أما الحيوانات- مثلًا- فعندها من الاكتفاء الذاتي ما يحقق لها استقلالية تغنيها عن بني جنسها، فضلًا عن الآخرين.

ولنا أن نتصور أيَّ بؤس وشقاء يحل بمجتمع من المجتمعات، أو يتسلط علىٰ حضارة من الحضارات، حين يكون سفك دم الإنسان أهون من سفك دم البعوض؟! أو حين لا يكون الإنسان في مأمن علىٰ حياته وحقوقه؟!

هل يمكن أن تقوم حضارة أو يتماسك مجتمع؟!

إن الأهواء حين تتلاعب بحرمة الدماء، يصير قانون القوة- حينئذٍ- هو الحَكَم، وأجواء الغابة هي المسيطرة.. وساعتها لا تسأل عما دون ذلك من حقوق!

ولذلك كان حقًّا، بل واجبُ صيانة الدماء هو الركيزة التي تُبنىٰ عليها بقية

= النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ. قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ. قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا. فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَىٰ أُمَّتِهِ، فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

(1) روىٰ البيهقي في «السنن الكبرىٰ» عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَقْتُلُ نَفْسًا ظُلْمًا، إلا كَانَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا؛ لأَنَّهُ سَنَّ الْقَتْلَ أَوَّلًا».

الحقوق، ومن ثم تتأسَّس الحضارات.. ومتىٰ تأكدت حرمة الدماء، فما بعدها أيسر.

ولنا في التاريخ الحديث عبرة...

هل شقيت أوروبا واكتوت بنار حربَيْها العالميتين، الأولىٰ والثانية، اللتين راح ضحيتهما أكثر من 70 مليون نفس، إلا بسبب الاستهانةِ بحرمة الدماء، والسيرِ الأعمىٰ وراء قادةٍ أعمتهم ذواتُهم المتضخمة، وساقتهم أنانيتُهم المتوحشة إلىٰ أَتُّونِ نَارٍ مُتَّقِدَة؟!

وفي المقابل.. هل استقرت مجتمعات، وشُيدت حضارات، إلا بعد أن عُرف للإنسان إنسانيتُه، وعُظمت حقوقُه، التي علىٰ رأسها حفظ بنيانه، وتحريم دمائه، بغض النظر عن دينه أو لونه أو عرقه؟!

فيالسعادة مجتمع تكون فيه حرمة الدماء حقيقةً راسخةً، وحَرَمًا آمنًا لا يُسمح بالاقتراب منه، فضلًا عن العبث فيه.

كيف نحقن الدماء؟

هذا سؤال ينبغي أن يكون ضمن أولوياتنا، بعدما عرفنا أهميةَ ترسيخ حرمة الدماء، والمخاطرَ الكارثية التي تتكبدها البشرية جرَّاء خدش تلك القيمة الكبرىٰ.

وهذه بعض الخطوات مما يمكن أن نسهم به في حقن الدماء:

* ترسيخ حقوق الإنسان في واقعنا، فكرًا وممارسة، وإدراك أن هذه الحقوق كما أنها «ثمرة» لتقرير حرمة دم الإنسان، فهي أيضًا «سياج» لعدم خدش هذه الحرمة.. فالعلاقة بينهما تبادلية.

* الوعي بأن حقوق الإنسان ليست ترفًا فكريًّا، ولا «ديكورًا» نتجمَّل به، بل هي فريضة شرعية، وضرورة واقعية، وحتمية لازمة للبناء الحضاري.

* اعتماد الحوار- والحوار فقط- سبيلًا لتقريب وجهات النظر وحسم الخلافات، وعدم اللجوء للعنف والقوة، وإدراك أن العنف دليل علىٰ ضعف الموقف واختلال الإسنادات المطلوبة لإقناع الآخرين عن طريق الحوار والسِّلْم.

* فتح الأبواب أمام منافذ التعبير عن الآراء بالطرق السلمية؛ حتىٰ لا يُبرر البعض

لنفسه اتخاذَ طريق القوة والعنف، مما يترتب عليه بالضرورة إراقة الدماء.

* إعادة النظر في مناهج التربية الأسرية، وفي الخطاب الديني، وكذا الإعلامي، بما يرسخ قيم احترام الآخرين، ويجعل الحوار آليةً للتعايش وإدارة الخلاف، ويؤكد حرمة الدماء.



التعصب... مُفسِد للدين والدنيا

في موضوع شائكٍ كهذا، تبدو الحاجة أكثر إلحاحًا إلىٰ الوقوف قليلًا مع تعريفات ومضامين المفاهيم التي نحن بصددها؛ حتىٰ ننطلق من أرضية واضحة في المعالجة والحوار.

* أما (التسامح) فهو من اللين والسهولة، يقال: «سَمَحَ- سَمْحًا وسَمَاحًا وسَمَاحَةً: لاَنَ وسَهُلَ، وانقادَ بعد استصعاب»[1]. وهو: «سعةُ صدرٍ تُفسح للآخرين أن يعبروا عن آرائهم ولو لم تكن موضوع تسليم أو قبول، ولا يحاول صاحبه فرض آرائه الخاصة علىٰ الآخرين»[2].

* وأما (التعصب) فهو من «عَصِبَ اللَّحْمُ بِالْكَسْرِ، أَيْ كَثُرَ عَصَبُهُ. وَانْعَصَبَ: اشْتَدَّ. وَالْعَصْبُ: الطَّيُّ الشَّدِيدُ. وَعَصَبَ الشيءَ يَعْصِبُهُ عَصْبًا: طَوَاهُ وَلَوَاهُ، وَقِيلَ: شَدَّه. وَتَعَصَّبَ، أَيْ شَدَّ الْعِصَابَةَ. وَالْعِصَابَةُ: الْعِمَامَةُ. والْعَصَبِيَّةُ: أَنْ يَدْعُوَ الرَّجُلَ إِلَىٰ نُصْرَةِ عَصَبَتِهِ، والتَّأَلُّبِ مَعَهُمْ عَلَىٰ مَنْ يُنَاوِئُهُمْ، ظَالِمِينَ كَانُوا أَمْ مَظْلُومِينَ. وَفِي الْحَدِيثِ: الْعَصَبِيُّ مَنْ يُعِينُ قَوْمَهُ عَلَىٰ الظُّلْمِ»[3].

وجاء في «المعجم الفلسفي»: (التعصب): غلو في التعلق بشخص، أو فكرة، أو مبدأ، أو عقيدة، بحيث لا يدع مكانًا للتسامح. وهو ضرب من الحماسة الشديدة التي قد تؤدي إلىٰ العنف والاستماتة. وهو بهذا حالٌ غير سوية علىٰ مستوىٰ الفرد والجماعة، ويصاحبها ضيق أفق وبُعد عن التعقل[4]. و«التعصب نقيض الحرية

---

(1) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ص: 465، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2008م.

(2) مجمع اللغة العربية بالقاهرة المعجم الفلسفي، ص: 44، المطابع الأميرية، بدون رقم الطبعة، 1983م.

(3) ابن منظور لسان العرب، مادة (عصب)، 4/ 2963، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، بدون رقم الطبعة وتاريخ النشر.

(4) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، ص: 49.

والتسامح، إذا ازداد التعصب قلَّتْ الحرية، والعكس بالعكس»[1].

* وهناك مصطلح يتقاطع مع التعصب وهو (الغلو). و«الغُلُوُّ: تَجَاوُزُ الحَدِّ، يُقال ذلك إذا كان في السِّعْرِ غَلاء، وإذا كان في القَدْر والمنزِلَةِ غُلُوٌّ. قال تعالىٰ: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ (النساء: 171). والغَلْوَاءُ: تَجاوُزُ الحَدِّ في الجِمَاحِ؛ وبه شُبِّهَ غَلوَاءُ الشَّباب»[2].

من هذه التعريفات يمكن أن نخلص إلىٰ أن:

- التسامح حالة نفسية بالأساس تستتبع موقفا فكريًّا، فمجرد العلم لا يؤدي إلىٰ التسامح إلا إذا تحلَّىٰ صاحبه بأخلاق فاضلة. والتسامح والحرية مترابطان، وإن شئت فقل: مترادفان.

- التعصب فيه معنىٰ الطَّيّ واللّي والشدّ، أي الانغلاق والانطواء، فالمتعصب لا يحب أن يرىٰ أو يسمع خلاف ما يعتقد، أو يسمع سماع المعرِض لا سماع من يبحث عن الحقيقة. وقد يتطور التعصب من مجرد موقف فكري إلىٰ فعل مادي، بالعنف والقتل.

- الغلو هو تجاوز الحد لشيءٍ ليس بالضرورة أن يكون خطأ، بل قد يكون صحيحًا في أصله، مثل المغالاة في حب الأنبياء بعبادتهم! أو المغالاة في حب الأوطان بالعنصرية! والغلو أقرب أن يتسرب إلىٰ الشباب؛ لأنها مرحلة عمرية تتصف بالاندفاع والحماسة وعدم الروية.

إشارات:

إذا نظرنا إلىٰ المنهج الإسلامي- كدعوة وعملية تغيير- نجد أننا أمام عدة أركان يقوم عليها هذا المنهج، وهي: (المرِسل) وهو الله سبحانه، و(الرسالة) وهي الإسلام، و(المرَسل) وهو النبي محمد ﷺ، و(المرَسل إليهم) وهم المسلمون، والناس كافة.

وقد وردت إِشارات في القرآن الكريم والسنة النبوية تدلنا علىٰ أي مدىٰ أن

(1) جميل صليبا، المعجم الفلسفي 1/ 306، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، بدون رقم الطبعة.
(2) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن 472/ 473، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، بدون تاريخ.

الإسلام بهذه الأركان هو أبعد ما يكون عن إقرار التعصب، فضلًا عن الدعوة إليه.

فـ (الله) سبحانه أخبرنا عن ذاته العلية بأنه لم يخلق الناس ليعنتهم ولا ليوقع بهم الحرج والمشقة؛ فقال سبحانه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ (النساء) ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة)، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ (الحج: 78).

و(الرسالة) قال الله تعالىٰ عنها: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ﴾ (البقرة: 256). كما قال عنها النبي ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ» (رواه أحمد من حديث أبي أمامة).

و(الرسول ﷺ) قال الله تعالىٰ عنه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ (آل عمران: 159).

و(المسلمون) حدد لهم النبي ﷺ المنهج الذي ينبغي عليهم اتباعه، فقال: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» (رواه البخاري من حديث أبي هريرة).

والسؤال: إذا كانت هذه الإشارات- وغيرها كثير- قد تواترت بحق المنهج الإسلامي، فكيف تسرب التعصب إلىٰ واقعنا، وغاب التسامح بما يستلزمه من حرية في الفكر وتعددية في المواقف والرؤىٰ، حتىٰ تطور ذلك- أو: تدهور!- إلىٰ عنف مادي، أساء للإسلام بما لم يسئ به أعداؤه؟!

أسباب مشتركة:

التعصب.. سواء كان فكريًّا، أو سياسيًّا، أو اجتماعيًّا، أو متعلقًا بموقف أو بشخص، له أسباب عامة مشتركة تقف وراء هذه الظاهرة، أهمها:

اضطراب الأسرة: فإذا نشأ الطفل في بيئة أسرية مضطربة مليئة بالمشكلات، يتسلط فيها أحد الأبوين علىٰ الآخر، فإنه لاشك سينشأ منطويًا أو عدوانيًّا تجاه الآخرين، وهو في الحالتين لن يعتد إلا برأيه، ولن يثق بغيره[1].

---

(1) ذكر د. طارق حجي في كتابه «تجربتي مع الماركسية»- الفصل الأول: الماركسية والماركسيون والأخلاق- أن الجماعات اليسارية المتطرفة كان يلاحَظ انحدار شبابها من أسر مضطربة، وأنهم يعانون انحرافات نفسية وأخلاقية جعلتهم حانقين علىٰ المجتمع. كما ذكر أن هذا كان رأي الأستاذ عباس محمود العقاد أيضًا.

قلة العلم: فكلما ازداد الإنسان علمًا أدرك أنه يجهل أكثر مما يعلم، وأنه لا يلم إلا بطرف من الحقيقة وغابت عنه أشياء، وأن ما يظنه صوابًا محضًا قد يكون هو الخطأ المحض! أو على الأقل: قد يكون أحد أوجه الصواب. حينئذ لا يسعه إلا أن يتبع منهج الإمام الشافعي القائل: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب».

وإن الدارس لتاريخ الحركات التي انجرفت إلىٰ هوة التعصب، واتخذت العنف طريقًا، ليجد أنها قامت علىٰ أناس قليلي العلم، وأخذوا عن الكتب أكثر من العلماء، فأورثتهم قلة العلم، والطريقة الخاطئة في التلقي، فهمًا سقيمًا حسبوه الحقيقة المطلقة.

لكن المنهج الصحيح يقتضي أن ندور مع الدليل أينما دار، ونبحث عن الحق ولو لم يوافق هوانا، ونأخذ به ولو جاء ممن خالفنا في المذهب.. وندرك أن محكمات الشرع وقطعياته التي لا يجوز الخلاف بشأنها قليلة جدًّا، وأن ما دون ذلك كثير والباب فيه مفتوح لتعدد الآراء والاجتهاد المنضبط، وهنا تكون القاعدة أنه «لا إنكار في المختَلَف فيه».

غياب الحريات: إن كلمة ابن خلدون الجامعة: «الظلمُ مُؤْذِنٌ بخرابِ العُمران»، تلخّص الآثار الكارثية التي تنتج عن بيئة القهر والتسلط، وعن غياب الحريات، وانعدام الأفق السياسي الذي يسمح بالتعددية والحوار، وانطلاق المواهب والأفكار من عقال الخوف والريبة.

وحين يجهر الفرعون بـ ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾[غافر:29] ، فإنه لن يقابَل إلا بردة فعل في الاتجاه المضاد؛ لا تعترف بالحوار، ولا تؤمن بجدوىٰ الأفكار، ولا ترىٰ إلا ذاتها.. وهل ثمة بيئة لتفريخ التعصب والغلو أفضل من هذه؟!

الانغلاق علىٰ الذات: إن من سنن الله الثابتة، أنه لم يخلق الناس علىٰ نمط واحد، بل قرر فيهم «سنة الاختلاف» في الألسنة والألوان والأعراق، بل حتىٰ في الشرائع والمذاهب، قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ

وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (الروم)، وقال سبحانه أيضًا: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ﴾ (هود: 118، 119).

لكن المنغلق علىٰ ذاته لا يرىٰ إلا نفسه، ولا يسمع إلا صوته، ولا يعترف بحق الآخرين في الاختلاف والاجتهاد، بل ربما لم يرَ لهم حقًا في الحياة أصلاً! وهذه الرؤية الأحادية مخالفة لسنة الله في الكون، ومن شأنها أن تجعل صاحبها يستهين بحقوق الآخرين، ويستخف بحرماتهم.

شيءٌ من التسامح:

في مقابل ظاهرة التعصب والغلو، التي لها آثارها المفسدة للدين والدنيا، تبدو أهمية قيمة التسامح كإحدىٰ القيم الضرورية التي لا غناء عنها لمن ينشد مجتمعًا متماسكًا، ويبتغي تدينًا صحيحًا يتساوق مع الفطرة السليمة والعقول المستقيمة.

والتسامح كقيمة فكرية وموقف عملي يقتضي أن نؤكد عدة أمور:

* أن كل إنسان- فيما دون العقائد؛ إذ الدين عند الله الإسلام- يملك طرفًا من الحقيقة، مثلما أن العلم لا يعرف الكلمة النهائية، فهناك دائمًا ما يدعو إلىٰ التغير والتطور، وتجربة الإمام الشافعي في مذهبه الجديد بعد القديم، خير شاهد، وما قرره الفقهاء من أن الفتوىٰ- لا الحكم- تتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، يساند هذا ويعضده.

* التسامح يعني بالضرورة وجودَ من يخالفنا، وإلا فلا معنىٰ للإشارة إلىٰ التسامح والتأكيد عليه لو أن ثمة إجماعًا علىٰ رأي واحد!

* التسامح مع المخالف لا يعني الرضا بما يقول به، ولا التنازل عن قناعاتنا الذاتية، بل يعني فقط السماح بوجوده والإقرار بحقوقه.

* إذا كانت إرادة الله سبحانه قاضيةً باختلاف الناس وتنوعهم، فلا رادّ لذلك، ومهمتنا أن ننقل هذا الاختلاف من دائرة الصراع والمواجهة إلىٰ دائرة التدافع والتكامل.

* علينا أن نحذر من دعوات التسامح التي توجَّه بطريقة ملتوية بغرض أن ينصرف

أهل الحق عن التمسك بحقهم ويرضوا بما وقع من ظلم، فهذه الدعوات تفقد قيمتها الأخلاقية إذا أريد لها أن تكون ستارًا لتسويغ الظلم وتبرير الاستسلام.

* ينبغي أن تقدم النظم السياسية نموذجًا للتسامح من نفسها أولًا، فالناس على دين ملوكهم، والشعوب تربّىٰ وتعلَّم، وإذا كان المجتمع بفئاته مطالَبًا بإشاعة التسامح وجعْله قيمة راسخة في الحياة بمختلف اتجاهاتها، فإن من بيدهم الأمر والنهي يصبحون أكثر مسئولية في تحقيق تلك القيمة المهمة، التي هي بلاشك لازمة لعمارة الدنيا واستقامة الدين.



الحرية والبناء الحضاري

لئن كان المفكر الجزائري مالك بن نبي قد صاغ معادلته الشهيرة، التي خلص فيها إلى أن «الحضارة» هي ناتج: الإنسان + التراب + الوقت، وأن تلك المعادلة تحتاج لِمَزْج عناصرها وإحداث التفاعل بينها إلى ما أسماه «مركّب الحضارة»، والذي يتمثل في «الدين»[1].. لئن كان مفكرنا قد خلص إلى هذه المعادلة ولم يأت فيها على «الحرية» بذكر، فإنني أعتقد أن ذلك ليس غفلة منه عنها، ولا تجاهلًا لمكانتها كإحدى ركائز البناء الحضاري، بل أتصور أن السببَ في ذلك أنه قَصَدَ إلى وضع معادلة للحضارة في جو قد توافرت فيه الحرية ابتداءً، وإلا فهل كان تحذيره ودعوته للتخلص من الاستعمار ومن القابلية له إلا لترفرف راية الحرية على الأوطان والبشر؟!

لا غرو إذن أن تكون الحرية من أهم شروط النهضة، وطرفًا أساسيًّا في المعادلة الحضارية، ومن ثم، يكون لغيابها ظلال قاتمة على كل مناحي الحياة.. فبقدر أهمية وجودها ورسوخها، تكون الكارثة عند فقدانها!

وعلى مدى الأزمان التي أظلت البشرية، شُغل المفكرون والفلاسفة كثيرًا بتعريف الحرية، وتجلية معانيها، ووضعوا لذلك تعريفات عدة يصعب حصرها، غير أن الملاحظ أن معظم هذه التعريفات تدور حول قدرة الإنسان على التعبير عن ذاته، وإنفاذ إرادته. فالحرية تكاد تكون مرادفة للإرادة، لأن من لا إرادة له لا يكون حرًّا، سواء كان ذلك بشكل كامل كما في حالة الرق، أو بصورة جزئية كما عند المكرَه.

جاء في «المعجم الفلسفي»: «الحرية، بوجه عام: حال الكائن الحي الذي لا يخضع لقهر أو غلبة، ويفعل طبقًا لطبيعته وإرادته، وتصدق على الكائنات الحية

---

(1) راجع كتابه: شروط النهضة، ص: 45، 46، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، طبعة 1986م، دار الفكر، دمشق.

جميعها، من نبات وحيوان وإنسان»[1].

مواقف ثلاثة:

وقد انقسم الناس تجاه الحرية بوجه عام إلىٰ ثلاثة مواقف:

الأول: وهو موقف من يزعمون الحرية المطلقة للإنسان، وأنه سيد نفسه، ولا سلطان عليه إلا ما يحدده هو لنفسه، رافضين فكرة الثوابت والمطْلَقات. وهؤلاء يتناقضون مع أنفسهم، إذ هم يقبلون بوجود قيود فيما يتصل بينهم وبين الآخرين، بينما يرفضون وجود أي نوع من القيود فيما يتصل بالألوهية، ويقولون بالنسبيَّة في كل شيء!

أما الثاني: فأصحابه يُكثرون من وضع الضوابط بزعم أنها لتنظيم ممارسة الحرية؛ حتىٰ تتحول تلك الضوابط إلىٰ قيود، ويتلاشىٰ معها عمليًّا حقُّ الحرية، الذي يبقىٰ حينئذ مجرد كلام نظري تطرب له النفوس، أو بالأحرىٰ: تخدَع به النفوس، دون وجود أي أثر ملموس له في الواقع!

وأما الموقف الثالث: فهو موقف وسط بين الموقفين السابقين، وهو يعلي من الحرية وينظر إليها علىٰ أنها قيمة إنسانية كبرىٰ، ومقصد من مقاصد الشريعة علىٰ النحو الذي فصله العلامة محمد الطاهر بن عاشور، باجتهاد عميق[2].

لكن هذا الموقف الوسطي يرىٰ في الوقت نفسه أن الحرية- شأنها شأن كثير من القيم والمفاهيم- تحتاج إلىٰ ضوابط لتنظيمها وترشيدها، ولا يمكن أن تكون بلا سقف؛ إذ هي حينئذ تؤدي لا محالة إلىٰ العبثية والعدمية، وتتحول من كونها «وسيلة» لتحقيق إنسانية الإنسان إلىٰ «غاية» يتخبط بها المرء في طريق الشهوات ومتاهات الأفكار!

---

(1) المعجم الفلسفي، وضع مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص: 71، المطابع الأميرية، بدون رقم الطبعة، 1983م.

(2) منذ أن وضع الإمام أبو إسحاق الشاطبي (المتوفىٰ في غرناطة عام 790هـ) كتابه «الموافقات في أصول الشريعة»، ومقاصد الشريعة محصورة في «الكليات الخمسة»، وهي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ العرض، وحفظ المال. إلىٰ أن جاء الشيخ ابن عاشور (المتوفىٰ سنة 1379هـ) فأضاف إليها مقصد الحرية.

ضوابط لا قيودٌ:

وإذا كانت الحرية هي قدرة الإنسان على التعبير عن رغباته، فإنه ليس من المتصوَّر أن يمضي هذا التعبير في طريقه بلا سقف، فإرادات الناس حتمًا ستتعارض وتتخالف لو أُطلق لها العنان، ولذا قيل: حريتك تنتهي عند حقوق الآخرين.. هذه واحدة.

أما الثانية، فإذا كان من المقبول أن يتقيد الإنسان في حريته وإنفاذ إرادته ورغباته بحقوق الآخرين، وهم بشر مثله، فالأولىٰ أن يتقيد في ذلك بحقوق الله سبحانه، وهو صاحب الخَلق والأمر، وواهب النعم التي لا تحصىٰ.

لكنْ ثمة فرق كبير بين الضوابط والقيود، فالضوابط تأتي لتنظيم حق الحرية وتنفيذه علىٰ الوجه الأفضل، الذي يوازن بين كل أطراف المعادلة، من حيث الحقوق والواجبات، بينما القيود تكون لمصادرة الحرية، حتىٰ لو زعموا أنها من أجل إعلائها.

معرفة الله.. أصل الحرية:

إذا أردنا أن نصور الموقف الإسلامي من مفهوم الحرية، فيمكن أن نقول: إن رسالة الإسلام قد جاءت لتعطي الإنسان حريته علىٰ النحو الأمثل، ولتزيح عنه كل القيود التي كبَّلته.

وأكبر هذه القيود هو عبودية غير الله سبحانه، فإن عبودية غير الله تورث الإنسان ذلًا وصغارًا مهما تفاخر بأنه يمكنه فعل أي شيء، ومهما أعلن أنه شبَّ عن الطوق.. فمن كان أسير شهواته ونزواته، أو اعتقد في أحجار لا تضر ولا تنفع، فهو عبد حتىٰ لو كان سيدًا يملك العبيد.

جاء الإسلام وحطم هذا القيد، وفتح للإنسان آفاقًا غير محدودة في النظر والتفكير، وفي تحرير العقل والإرادة، وأمره بقراءة كتاب الكون، والتدبر في بديع صنع الله، حتىٰ إذا آمن بالله خالق الكون وما فيه، كان إيمانه جازمًا لا يتزعزع، ويقينه ثابتًا لا تردد فيه. وبينما كان يقال للآخرين «اعتقدْ وأنت أعمىٰ»، كان شعار الإسلام: ﴿قُلْ

هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة)، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ (سبأ: 46).

كما أن الإسلام من ناحية أخرىٰ، قد أضاف للحرية معنىٰ عميقًا حين نبه علىٰ أن الحرية شعور نفسي مثلما هي سلوك يتجه نحو الآخرين؛ ولذلك ورد في الحديث- في مقام الذم- نسبة العبودية إلىٰ من يجعل المال غايته الكبرىٰ، فقد روىٰ البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ».

فالعبودية لله سبحانه هي أصل الحرية، إذ هي تحرر الإنسان من الوقوع في أسْر الشهوات والرضوخ لرغبات النفس، كما تحرره أيضًا من الاستسلام لقهر الآخرين وتسلُّطهم، وتجعل من مقاومة الظلم فريضة يأثم الإنسان إن فرط فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ (النساء: 97).

إن دينًا يجعل من الجهر بكلمة الحق عبادة، ومن الموت في سبيلها شهادة، لهو جدير بأن يسمىٰ «دين الحرية».. وإن الله الذي سخر للإنسان الكون وما فيه، بسمائه وأرضه، ببره وبحره، بشجره وحجره، لا يرضىٰ بأن يكون الإنسان عبدًا لغيره سبحانه، ولذلك فإن عبارة الإمام محمد عبده: «الإنسان عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده»، توجز القضية وتوضحها أفضل ما يكون الإيجاز والتوضيح.

مبادئ لا تفصيلات:

كذلك كفل الإسلام كل أنواع الحريات: الاقتصادية، والسياسية، والفكرية، وغيرها.

* ففي الحريات الاقتصادية قرر الإسلام حرية التملك، وجعل موت الإنسان من أجل الحفاظ علىٰ ماله شهادة، فجاء في الحديث الصحيح: «ومَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» (أخرج أبو داود والترمذي من حديث سعيد بن زيد)... وفي المقابل، لم ينس الإسلام نصيب الفقراء في مال الأغنياء، بل سماه «حقا» وليس مجرد منة يتفضل بها الأغنياء.

* وفي الحريات السياسية أعلىٰ الإسلام من إرادة الأمة وجعل لها الحق في اختيار الولاة والحكام ومحاسبتهم، بل وجعل إرادة الأمة في مجموعها معصومة، ففي الحديث: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ أَجَارَ أُمَّتِي أَنْ تَجْتَمِعَ علىٰ ضلالة» (حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم 1786).

وبذلك كان الإسلام وسطًا بين من يقولون بنظرية «الحكم الإلهي» والتي يكون فيها الحاكم معصومًا نائبًا عن الله، إذ لا عصمة إلا للأنبياء والرسل.. وبين من يقولون بـ«الحكم المطلق» الشمولي ويرسخون للديكتاتوريات التي لا تعرف مراقبة الحكام ولا محاسبتهم. فجعل الإسلام الأمة نائبة عن الله، والحاكم نائبًا عن الأمة، توليه وتراقبه وتعزله[1].

* أما حرية الفكر والاعتقاد، فإن الآية الكريمة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: 256)، هي من مفاخر الإسلام التي أهداها للإنسانية، وهي آية محكمة لا صحة لما قيل عن نسخها[2].

وقد كانت الحضارة الإسلامية شاهدة علىٰ التسامح والاستيعاب الذي شمل به الإسلام غير المسلمين داخل نسيج المجتمع الإسلامي، ماداموا مسالمين لم يبدؤوا بعدوان، ولم يتآمروا مع عدو، حتىٰ نبغ عشرات اليهود والنصارىٰ في سماء الحضارة الإسلامية، وتقلدوا مناصب عالية في إدارة الدولة[3].. وحين ضاقت أسبانيا باليهود

(1) راجع المزيد في: نظام الحكم في الإسلام، د.محمد يوسف موسىٰ، ص: 100، دار الفكر العربي، بدون تاريخ. «النظريات السياسية الإسلامية»، د.محمد ضياء الدين الريس، ص: 212، مكتبة دار التراث، ط7، بدون تاريخ. «هل الإسلام هو الحل؟ لماذا وكيف؟»، د.محمد عمارة، ص: 112، دار الشروق، ط2، 1998م.

(2) خلص د. مصطفىٰ زيد إلىٰ أنه لا صحة لما قيل عن نسخ هذه الآية بما تسمىٰ «آية السيف»، فقال رحمه الله: «إن لفظ الآية عام في نفي جنس الإكراه، والتعليل الذي ذكرته لهذا النفي - أو النهي - عام أيضًا، ونعني به قوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة:256]. وهذه الآية تقرر مبدأ لا ينبغي أن يدعىٰ عليه النسخ بحال، إذ هو من المبادئ التي يعتز بها الإسلام في تاريخه الطويل، وهو الدين الذي حرر النفس من ربقة الهوىٰ، وربأ بالعقل عن عبودية التقليد». انظر له: «النسخ في القرآن، دراسة تشريعية تاريخية نقدية»، 2/ 512، 513، دار الوفاء، ط3، 1987م.

(3) راجع عشرات الأمثلة علىٰ ذلك، في: «عالمية الإسلام»، د.شوقي ضيف، ص: 21، طبعة خاصة من «دار المعارف» ضمن سمكتبة الأسرة»، 1999م. و«حضارة العرب»، جوستاف لوبون، ص: 267، ترجمة عادل زعيتر، طبعة مكتبة الأسرة، 2000م.

بعد سقوط الأندلس في يد النصارىٰ، لم يجد اليهود لهم ملجأ إلا أحضان الدولة العثمانية، فآوتهم بعد أن كادوا يُمحَون من التاريخ ويكونون نَسْيًا مَنسيًّا!

* غاية ما هنالك في شأن الحريات التي قررها الإسلام- سواء في الجانب السياسي أو الاقتصادي أو غيرهما- أنه قد اكتفىٰ في الغالب بتقرير قيم ومبادئ، مثل: الشورىٰ، العدل، الحرية، حرية العمل والتملك، حرمة المال الخاص والعام، احترام إرادة الأمة، والحفاظ علىٰ كرامة الإنسان من حيث هو إنسان.. وترك للناس حرية تنظيم تلك القيم والمبادئ بما يتوافق مع منجزات العقل البشري في كل عصر ومصر؛ حتىٰ لا يشق علىٰ الناس ويوقعهم في العنت والحرج إن هو ألزمهم بصورة واحدة ثابتة لا تتغير. فالمهم أن تظل القيم والمبادئ العامة مصونة من الجور والاعتداء بأي صورة من الصور، وللناس بعد ذلك أن تبدع ما شاءت من أساليب وتفصيلات.

الحرية أساس الحضارة:

لما كان الإنسان عمادَ الحضارات، هو الذي يصنعها ويشيد أركانها ومعالمها، فإن الحضارة من دون الإنسان تبقىٰ كومة من القش والمعادن.

وما ينبغي أن نلتفت إليه هنا هو أن الإنسان- صانع الحضارات- لا قيمة له من دون الحرية! فالحرية هي التي تفجر فيه طاقات العمل والإنتاج والإبداع، وتحفزه إلىٰ البذل والعطاء.. وهل يستطيع مقيدُ اليدين أن يضع لبنة فوق أخرىٰ؟!

إن الإنسان بالحرية يمكنه أن يتذوق إنسانيته، ويشعر بكينونته، ويدرك أن له دورًا في الحياة. ولذلك لما طُلب من عنترة العبسي أن يدفع عن قومه، قال لأبيه: العبدُ لا يحسن الكَرّ، إنما يحسنُ الحِلاب والصّر. فقال له أبوه: كُرّ وأنت حُر!

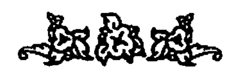
هذه إذن- باختصار- العلاقة بين الإنسان والحرية، ومن ثم، بين الإنسان والحضارة.

وإذا كنا نتساءل كثيرًا عن أسباب الفجوة الحضارية الهائلة بين عالم الإسلام والغرب، فإن مما لاشك فيه أن أحد أهم أسباب تلك الفجوة هو تمتع الغرب بحساسية شديدة تجاه ما يكبل الإنسان، ويكبت طاقاته.

صحيح أنهم ذهبوا هناك في تحقيق الحرية إلىٰ ما بعد الخطوط غير المسموح بتجاوزها، لكن لا يمكن أن يكون البديل هو انخفاض سقف الحرية إلىٰ ما دون الخطوط غير المسموح بالتنازل عنها!

فمتىٰ نصنع لأنفسنا نموذجًا يجمع في وسطية واتزان بين الحرية والمسئولية.. بين إشباع رغبات النفس والعبودية لله.. بين الإبداع والالتزام.. بين الحقوق والواجبات.. بين حقوق الوطن من جهة وحقوق المواطنين من جهة أخرىٰ؟

ذلك هو التحدي الحضاري الذي يفرضه علينا سؤال الحرية.



الأشياء.. وسؤال الحضارة

ثمة تعريفات كثيرة تحاول أن تستجلي مضامين الظاهرة الحضارية، وتستبين شرائطها ومظاهرها ومعادلاتها، لكننا يمكن أن نعرِّف هذه الظاهرة ونتلمس مؤشراتها من زاوية «الإنتاج والاستهلاك»، فنقول: الحضارة هي فائض الإنتاج، وبالتالي فإن مفهوم المخالفة يقتضي أن تكون زيادة الاستهلاك وما تستتبعه من زيادة الاستيراد، مؤشرًا من مؤشرات التراجع الحضاري.

الحضارة تعني- في شقها المادي- إبداعًا في التعامل مع عالَم الأشياء، وقدرة فائقة علىٰ التفاعل مع معادلات الكون وكشف غموضها، وهذا يقتضي بالضرورة القدرة أولًا علىٰ تحقيق الاكتفاء الذاتي، وتوظيف الإمكانات المتاحة بما يفي بالمتطلبات الأساسية والحاجات الملحة، وصولًا إلىٰ توفير قدر من الإنتاج يسمح بزيادة العمران، وتحقيق الرفاه، وتشييد الحضارة.

لكن للأسف، قد تتوافر الموارد المالية التي تمكِّن- إذا أحسنَّا استغلالها- من قطع الشوط الأول في رحلة الألف ميل نحو الحضارة، فإذا بالبعض يستسهل تراكمية الأشياء بالاستيراد، بدلًا من إعمال العقل، وبذل العرق، وتفعيل الطاقات، ورفض التسلق علىٰ منجزات الآخرين.. ظنًّا منه أن تراكمية الأشياء، والزهو بامتلاك أحدث الصيحات في عالم الرفاه، يعني امتلاك ناصية التقدم، واختصار الطريق باتجاه الحضارة!

هذه الحالة الزائفة لمفهوم الحضارة، هي ما حذر منه مالك بن نبي وسماها «ظاهرة التكديس»، موضحًا أن طريقنا إلىٰ الحضارة يمر عبر مرحلةٍ نتنقل فيها (من التكدس إلىٰ البناء)، فننتج الأشياء، «لا أن نكدسها، فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة، لا التكديس، ولنا في الأمم المعاصرة أسوة حسنة. فالحضارة هي التي تكوّن منتجاتها، وليست المنتجات هي التي تكوّن حضارة، إذ من البديهي أن

الأسباب هي التي تكوّن النتائج، وليس العكس، فالغلط منطقي، ثم هو تاريخي، لأننا لو حاولنا هذه المحاولة فإننا سنبقى ألف سنة ونحن نكدس ثم لا نخرج بشيء»[1].

وهذا لا يعني بحال من الأحوال أن نقلل من قيمة الأشياء، ولا أن ندعو إلى عدم التمتع بطيبات الحياة الدنيا، فموقف الإسلام في هذه القضية واضح غاية الوضوح، وهو موقف وسط بين من يغالي في حب الأشياء حتى تلهيه عن ذكر الله، وبين من يزدريها ويجور على حقوق جسده بزعم الارتقاء بالروح، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾ (الأعراف). وقال أيضا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ (القصص).

لكننا ندعو إلى التمتع والزهو بما هو من صنع أيدينا، ومن حصاد أعمالنا، ومن كدِّنا الذي يصل الليل بالنهار، أما ما دون ذلك فلا يسمى حضارة، ولو امتلكنا أحدث الصيحات في عالم الأشياء!

---

(1) «حديث في البناء الجديد»، بن نبي، ص: 98، 99، ترجمة عمر مسقاوي، المكتبة العصرية، بيروت.

الإعلام... بين المسئولية والمساءلة

ليس من العجيب أن تتجه القوانين والتشريعات في معظم دول العالم إلىٰ إعطاء مساحات أكبر من الحرية لوسائل الإعلام والصحافة.. فالإعلام والصحافة هما- أو هكذا يجب أن يكونا- عين المجتمع الساهرة، وضميره الحي اليقظ، وصوته الذي يجأر بالصراخ والتنبيه حين يلمح فسادًا، أو يكشف خللًا.

ومن هنا شاع في الأدبيات الإعلامية والثقافية أن الإعلام والصحافة يمثلان «سلطة رابعة» تضاف إلىٰ السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية.. ليس بالمعنىٰ القانوني لكلمة «السلطة»، ولكن بمعنىٰ أن هذه المهنة ومن يشتغلون بها هم نواب عن الشعب في مراقبة المسئولين، وفي حماية مصالحه.

وهذه المساحات الواسعة من الحرية، التي تمنحها القوانين للإعلام بمختلف وسائله، لا تعني أن يستعلي الإعلاميون والصحفيون علىٰ المجتمع، ولا أن يظنوا أنهم فوق المحاسبة والمساءلة.. فهم في النهاية شريحة من المجتمع يجب أن تخضع لقوانينه وأعرافه وتقاليده، ويجب أن تعمل بما يحقق الصالح العام دون الانتفاع الشخصي أو الطبقي؛ وإلا تحولت المميزات التي تعطيها القوانين للإعلاميين والصحفيين إلىٰ منافع شخصية، لا منافع عامة كما هو الغرض الأساسي من هذه المميزات.

ولذلك، فقبل أن ينظر الإعلامي أو الصحفي إلىٰ القيد القانوني الذي يجب أن يخضع له ويعمل له حسابًا- شأن بقية المواطنين- عليه أن يجعل من نفسه شخصًا جديرًا بالثقة التي أولاه إياه المجتمع، ومنحها له ليكون عينه الساهرة علىٰ قيمه ومصالحه.

أي قبل أن ينظر رجل الإعلام والصحافة إلىٰ «المساءلة» بمفهومها القانوني، يجب أن يأخذ في اعتباره «المسئولية» بمضمونها الذاتي.. ويجب أن يكون المشتغلون

بالإعلام رقباء علىٰ أنفسهم، وكتاباتهم، وما يبثونه من أخبار وتحليلات؛ قبل أن يَخضعوا- أو يُخضَعُوا- لضبط القانون وقيده وسلطانه.

وأقصد هنا بـ «الرقابة الذاتية» ليس القيد الذي يدفع إلىٰ الخوف في مواجهة باطل أو كشف جريمة؛ بل القيد الذي يجعل الصحفي أو الإعلامي يدقق بصدق وأمانة فيما يطرحه علىٰ الناس من معلومات وآراء، بحيث تكون رقابته علىٰ نفسه أشد من أية رقابة أخرىٰ؛ لأن الناس قد استأمنوه علىٰ عقولهم وأفكارهم، وأولوه ثقتهم.

فيجب أن يرتقىٰ هو إلىٰ تلك المنزلة التي هي تتقاطع مع منزلة المربين والموجهين والدعاة، بل لا أكون مبالغًا إذا قلت: إنها تتقاطع مع وظيفة الأنبياء والمرسلين.. وهل كانوا- صلوات ربي وتسليماته عليهم- إلا مبلِّغين، وأصحابَ كلمةٍ وبيانٍ للناس، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ (إبراهيم: 4).

غياب الرقابة الذاتية:

لكننا للأسف لا نلحظ في عالمنا العربي أن قيم الرقابة الذاتية – خاصة فيما يتصل بالإعلام- قد تأصلت فيه بالشكل الذي يجعل من رجل الإعلام رقيبًا علىٰ نفسه، قبل القانون؟

فبالرغم من عشرات بل مئات الأخبار الكاذبة، وسيل الإشاعات المغرضة الذي يتدفق يوميًا عبر صفحات الجرائد وشاشات الفضائيات، إلا أنه قلَّما نجد صحفيًّا شجاعًا يعتذر عن خطأ وقع منه، أو يصحح معلومة كتبها سهوًا!

وهذا يعني أمرين:

- أن حضور حقِّ المجتمع في ذهن الإعلامي، ليس بالقدر المطلوب، إن لم يكن مُنعَدِمًا أصلًا!

- أن القوانين في عالمنا العربي ليست بالدقة والتوازن الذي يجمع في آن واحد بين حق الإعلامي في تداول المعلومات، وبين حق المجتمع وأفراده في حماية أعراضهم وحرياتهم الخاصة والعامة.

خياران.. أحلاهما مر!

وإذا أراد صاحب السلطة أن يصحح هذا الوضع المعوج، ويعالج الخلل الحاصل، فإنه قد يجابَه بضغوط من أصحاب المصالح الذين يهمهم أن يبقىٰ فضاء المجتمع مستبَاحًا أمامهم ليروجوا فيه بضاعتهم الإعلامية الكاذبة، القائمة علىٰ سيل الأكاذيب والإشاعات والافتراءات دون رقيب! بل إنهم يرفعون أمامه حقَّ «حرية التعبير والنقد» كواجهة براقة يريدون بها باطلًا!

وحينئذ يكون المجتمع أمام خيارين:

- إما أن يُبقي الوضع كما هو عليه، ولا يضبط القوانين والتشريعات التي تمزج الحرية بالمسئولية، وتجعل منها قيمة ليست مطلقة تعبث بها أيدي العابثين، وبالتالي تستمر معاناة المجتمع وخاصة الشرفاء منهم الذين هم محل اتهام وملاحقة من وسائل الإعلام غير المسئولة.

- وإما أن يُراجِعَ تلك التشريعات بما يعيد التوازن المفقود بين حرية الإعلام والنقد وبين ضرورة حماية حقوق الأفراد والمجتمع والأخذ علىٰ يد العابثين. ومن ثم، يكون صاحب القرار عُرضةً لنيران الإعلام وطلقاته، واتهاماته الجاهزة بالكبت، والتضييق، ومحاربة الإعلاميين الشرفاء!

تحالف غير شريف:

ولعلنا نلاحظ أيضًا أن التيارات الإسلامية - خاصة بعد "الربيع العربي"، ووصول بعضها إلىٰ مقاعد السلطة بعد تأييد الجماهير لها- باتت في مرمىٰ نيران المدفعية الإعلامية التي يقف وراءها ويغذيها التحالف الثلاثي غير الشريف، فلول النظم المستبدة البائدة، وأصحاب رءوس الأموال غير النظيفة، والتيارات اليسارية والعلمانية التي توجِّه الإعلام وتُكِنُّ العداء الشديد للإسلاميين حتىٰ وهم في غياهب السجون والمعتقلات، فما بالك وهم قد وصلوا لسدة الحكم؟!

لا مفر، والحال هكذا، من مراجعة التشريعات والقوانين التي تنظم حرية التعبير، ولا يجوز الرضوخ للإرهاب الفكري والقصف الإعلامي اللذين يمارسهما هذا

التحالف غير الشريف بحجة الحرية، التي هي عمليًا أقرب للفوضىٰ! لنمضيَ قُدمًا في طريق الإصلاح التشريعي الذي يجمع في توازنٍ بين حرية التعبير والنقد من جهة، وبين حقوق الأفراد والمجتمع من جهة أخرىٰ.

درس الهدهد!

إن الغرب الذي يتشدق به العلمانيون من الليبراليين واليساريين، قد ترسخت فيه قيم حرية الإعلام المسئول والمنضبط، حتىٰ إن أي صحيفة أو وسيلة إعلامية لا تجد غضاضة في الاعتذار حين تبث خبرًا يتضح لاحقًا عدم صحته، حتىٰ لو بثته بطريق الخطأ، بل هم يعلمون أن ذلك يوطد أواصر المصداقية مع القارئ الذي يبحث عن الحقيقة لا الأكاذيب.

ومنذ فترة- وتحديدًا في 10 أكتوبر 2012م- اعتذرت جريدة «الإندبندنت» البريطانية كتابيًّا للشيخ راشد الغنوشي، بعد أن نشرت خبرًا عن أنه قبض أموالًا من أحد أمراء الخليج وتبين لها أنه خبر عار من الصحة.. كما تم تأكيد هذا الاعتذار علىٰ لسان صحفيها المشهور «روبرت فيسك» عندما التقىٰ الشيخ الغنوشي لإجراء حوار صحفي معه.

فإذا لم يكن لهؤلاء الليبراليين واليساريين قدوة في أخلاقيات الإسلام التي تحرم الكذب، وتدعو إلىٰ التثبت في نقل الخبر، وإلىٰ الأمانة في طرح الآراء، وإذا لم يتعلموا من هُدهد سليمان عليه السلام حين قال له: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ (النمل).. فهل يكون لهم قدوة في صحافة الغرب وإعلامه المنضبط علىٰ بوصلة المجتمع والوطن والحقيقة فقط؟! أم تُراهم لا يقلدون الغرب إلا في شهواته وانحطاطه وانحرافاته؟!



الإعلام.. الحائر بين الخبر والرأي

من أهم المشكلات التي يعانيها الإعلام بمختلف وسائله هي الخلط الشديد بين الخبر والرأي، مرة بصياغة الخبر كأنه رأىٰ، ومرة أخرىٰ بتقديم الرأي كأنه خبر! بحيث لم يعد يعرف المشاهد أو القارئ: هل الذي أمامه هو تعبير عن حدث وقع، أم عن رأي مطروح؟!

ومن المعروف أن الإعلام يتكون من خبر ورأىٰ، الخبر يبحث في ماذا حدث وكيف.. إلىٰ غير ذلك من علامات الاستفهام التي تحاول تسليط الأضواء علىٰ الحقيقة. أما الرأي فهو يعتمد تصورًا واحدًا عن الحدث؛ ولذا يختلف الناس في آرائهم لأن كل واحد يري الحدث ويفسره من زاويته هو وما يتوافر لديه من معلومات.

وهذا الخلط الحاصل بين الخبر والرأي له نتائج كارثية؛ لأنه يؤدي إلىٰ:

أولًا: تشويه الحقائق

ثانيًا: تشويش القارئ أو المشاهد

ثالثًا: هو يعبر أيضًا عن نوع من عدم الثقة في القارئ، فكأن القارئ لن يهتدي إلىٰ الحقيقة بمجرد الاكتفاء بذكر الحدث كما هو بالضبط

رابعًا: هذا الخلط يعني فرض وصاية علىٰ المتلقي؛ لأن الرأي يحمل في مضمونه معني النصيحة والتوجيه.

المال والإعلام:

وفي هذا الصدد لا يمكن بالطبع إغفال دور (رأس المال) الذي تزاوج بطُرق غير شرعية مع (الإعلام)، والذي يسعي لفرض رؤيته وأفكاره لتوجيه الرأي العام بما يصب في مصالح فئة بعينها.. وعن هذا حدِّثْ ولا حرج.

وفي رأيي، فإن من أهم الأسباب وراء الارتباك الحاصل في الساحة الإعلامية المصرية الآن- ومما يعد أحد مظاهر تزاوج رأس المال والإعلام!- هو كثرة برامج (التوك شو) التي تحولت إلىٰ منابر سياسية، بل إلىٰ منصات للقضاء! وخرج فيها المذيع (أو المذيعة) من دور المحُاور الموضوعي إلىٰ دور القاضي، وربما: الجلاَّد، لصالح رأس المال الذي يدير هذه القناة الفضائية أو تلك.

وبالتالي تحول رجال الأعمال- في الخفاء- إلىٰ رجال سياسة يعملون علىٰ توجيه الرأي العام والتأثير علىٰ متخذي القرار عن طريق إثارة بعض القضايا أو تسليط الضوء عليها بطريقة ما.. خاصة إذا تعلق الأمر بالإسلاميين، فنري تضخيمًا للأمور وتصيّدًا للأخطاء، وابتسارًا للخبر وعرضه في سياق يوحي بعكس المقصود منه، بل ونري اختلاقًا لبعض الأخبار الكاذبة، وتحريفًا للتصريحات.

كما حدث مع الجمعية الشرعية، إذ نسبت «المصري اليوم» لرئيسها د. محمد المختار المهدي أنه قال: «من يهاجمون الدولة الإسلامية كفار ويريدون الزنا والفحشاء»، بينما الحقيقة أن فضيلته قال: (التخويف من الإسلام هو صناعة غربية سموها «الإسلاموفوبيا»؛ وأن هؤلاء يكرهون ما أنزل الله، ويصدون الناس عن دينه، لمآربهم الشخصية في بلادنا الحبيبة)[1].

إيصال رسالة أم تسلط في الأداء؟

وربما يأتي الخلط بين الخبر والرأي بسبب الحرص علىٰ إيصال رسالة محددة، أو إثبات الذات، خاصة وسط هذا الكم الهائل في وسائل الإرسال (من صحافة وتليفزيون) التي يبدو المتلقي أمامها مندهشًا أو حائرًا.

وقد يكون هذا التفسير له قدر من الصحة.. لكني رغم ذلك أعتقد أن الحقيقة المجردة هي خير دعاية للحقيقة نفسها، وأننا يجب أن نثق في عقل المتلقي وقدرته علىٰ الفهم والتحليل والمقارنة.. لا أن نتعامل معه علىٰ طريقة (الأب الفاضي) الذي يقف لابنه بالمرصاد وعلي كل صغيرة وكبيرة ويقول له: افعل كذا ولا تفعل كذا..

---

(1) انظر: مجلة «التبيان»- لسان حال الجمعية الشرعية- عدد رمضان 1432هـ ص: 61.

ويمارس عليه التسلط والكبت طوال الوقت، مما يضعف شخصية الابن ويفقده النمو العقلي والتفتح الذهني والقدرة علىٰ التعامل مع المواقف، بعيدًا عن وصاية أبيه.

ومن الطريف أن الأنظمة الديكتاتورية تتعامل بمنطق هذا (الأب الفاضي) مع الشعوب، ولا تتيح أمامها خيارات متعددة؛ لأنها تري نفسها الأقدر علىٰ فهم الأمور ومعالجة القضايا والاختيار.. فلماذا يختار الشعب ويتعب نفسه طالما أن الحكومة تعمل له كل شيء وتمارس بالنيابة عنه وضع القوانين والتشريعات؟!

الخبر ثم الرأي:

إن الصحافة الناجحة هي التي تلتزم بـ(ميثاق الشرف الصحفي) فتذكر أولًا الأخبار بكل تفاصيلها المعتمدة علىٰ المصادر الموثوقة وشهادات العيان.. ثم تفتح الباب واسعًا أمام الآراء والتحليلات في الأعمدة وصفحات الرأي، مع الحرص علىٰ تقديم آراء متعددة.

فالمعادلة الصحيحة: الخبر ثم الرأي.. لا العكس.. ولا الخلط بينهما.. وإذا كانوا في القانون يقولون: الحكم عنوان الحقيقة، ففي الإعلام: الخبر عنوان الحقيقة.

لقد ثبت بخبرة التاريخ أن الصحافة الموجهة التي تقدم رأيًا واحدًا بطريقة فجة.. لا تجد قبولًا لدىٰ المتلقي.. وتجربة الصحف الرسمية في مصر والعالم العربي خير دليل!

صحيح أنه لا يوجد إعلام محايد أصلًا، ولا موضوعي بنسبة 100٪؛ بمعني أن أي وسيلة إعلام لابد أن يكون لها اتجاهٌ ما، تحاول أن تروج له وتدافع عنه.. وهذا أمر يبدو طبيعيًا ومنطقيًا؛ لأنه ليس معقولًا أن ينشئ أحد وسيلة إعلام، دون أن يكون ثمة هدف من ورائها..

صحيح هذا.. لكن المطلوب أن نفرق بين الحياد والموضوعية والذاتية:

* **الحياد** هو خرافة كبيرة، وهو يعني الميوعة وعدم وضوح الرؤية، لأن أي إنسان- أو مؤسسة إعلامية- لابد أن يكون له رأي في المسائل المطروحة، بغض

النظر عن صواب هذا الرأي، ولا يمكن أن يكون الإنسان حياديًّا أبدًا مهما حاول أن يُخفِي رأيه المباشر.

* والموضوعية تعني أنك تستند إلىٰ الحقائق والأرقام لا الأهواء، وتخاطب العقول بالحجج والبراهين، وأنك تحترم وجهات النظر الأخرىٰ وتقدمها كما هي دون تشويهها أو الافتراء عليها.. لأن تجاوز الموضوعية يجعلنا نقع في شباك الدعاية، ويُحوِّل الإعلام إلىٰ إعلان!

* أما الذاتية فهي من صفات الأديب؛ لأنه ينطلق في أعماله من مشاعره وأفكاره وتجاربه الخاصة، وقد يجنح إلىٰ الخيال غير مرتبط بالواقع.. ولذلك الأعمال الأدبية ليست حجة في الاستدلال علىٰ الوقائع بقدر ما هي تسعي للترويج والدعاية للأفكار.

والخلاصة المهمة التي تبدو ملحة، خاصة في ظل هذا الفضاء الواسع الذي أتاحه ربيع الثورات العربية، أننا نحتاج إلىٰ أن نقترب من (الموضوعية) بأكبر درجة ممكنة.. وإلىٰ الأخبار الموثقة التي تضعنا في قلب الحدث وأبعاده، أكثر من حاجتنا إلىٰ الرأي الذي يمارسه البعض بما يشبه الوصاية والديكتاتورية!

واقعية بلا مخالب!!

حين نشأ مذهب الواقعية في الأدب والفلسفة في القرن التاسع عشر في أوربا؛ لتصوير الأشياء والعلاقات بصورة واضحة كما هي عليه في العالم الحقيقي الواقعي، وللتعبير عن الجوهر الداخلي لها.. فإنه- أي: مذهب الواقعية- كان ردَّ فعل مضادًا للمذاهب الأدبية التي تجنح إلىٰ الفانتازيا أو الرومانسية..

وقد أصاب مذهبَ الواقعية ما أصاب المذاهب الأدبية والفكرية الأخرىٰ، التي استدعتها البيئة الغربية بإشكالياتها شديدة الخصوصية.. بحث أصبحت الواقعية تفصل الأدب عن الأخلاق، وترمي إلىٰ رؤية الواقع مجردًا عن أية قيم أو مُثل يمكن أن تحكم مساره وتوجهه.

ولكي نفهم الواقعية أو المذاهب الأدبية الأخرىٰ، يلزمنا أن نشير إلىٰ أن هذه المذاهب نبتت في البيئة الغربية التي تشكَّلت بعد معارك طاحنة مع الكنيسة؛ للخروج من سلطتها الدينية التي فرضها القساوسة علىٰ الحياة الفكرية والثقافية بعامة.. فجاءت هذه المذاهب عنيفة في رد فعلها، حيث إنها تجاوزت رفض السلطة الكَنَسية إلىٰ رفض الدين ذاته، وسعت إلىٰ التحرر من أية ضوابط وقيم؛ لأنها- حسب زعمهم- قيود تكبِّل الإنسان، وتحدُّ من إبداعاته!

وبدلًا من التمرد علىٰ سلطة الإنسان، انقلب التمرد علىٰ الله!.. وصارت الحرية المنشودة انحرافًا وتفلتًا.. وانحدر التعبير عن الإنسان وقضاياه وعذاباته- كما كانت الواقعية تزعم في الأصل- إلىٰ الإسفاف والإيغال في وَحْل الشهوات والنزوات.. وبالتالي نسيان القيم وإهمال الروح، مع أن الإنسان لم يكن إنسانًا مُكرَّمًا إلا بهما.

واقعية أم إباحية؟!

وللأسف فإن الواقعية أصبحت تتعامل مع الإنسان وكأنه حيوان ناطق.. ليس إلا! فهي لا ترىٰ فيه إلا غرائزه ونزواته، ولا تهتم إلا بتصوير لحظات السقوط

والإسفاف.. وكلما أمعن الأدب في تصوير هذا الجانب (الحيواني) ، كلما كان بارعًا في التعبير عن الإنسان..

وقد فات الأدبَ الواقعي أنه بذلك يتجاهل أن الإنسان مخلوق كرَّمه الله، وأسجد له ملائكته، وخلقه من الروح والطين معًا، وأنه محتاج إلىٰ تلبية أشواق الروح حاجته إلىٰ إشباع نوازع الجسد.. بل إنه بغير الروح يصير حيوانًا، بل أضل.

وقد رأينا أنه من خلال ستار الواقعية الزائف سادت أفكار إباحية تُعلي الشهوات والرغبات، وتتجاهل القيم والغايات، وتقف عند الواقع، بل وتنغمس في أوحاله، ولا تتجاوزه إلىٰ ما يجب أن يكون.

وصار من الجائز والمباح باسم الفن والواقعية أن تُكشف العورات، وتُنتهك القيم، وتُضخَّم لحظات الضعف الإنساني، ويُصوَّر المجتمع علىٰ أنه ماخور كبير! أو غابة فسيحة لا ضابط لها ولا رابط.

ووقف وراء ذلك رأسُ مال ضخم، وسياساتٌ مغرضة، يلعبان علىٰ وتر الغرائز، ويُثيران في الشباب شهواتِه الفائرة؛ سعيًا إلىٰ إصابة المجتمع المسلم في رأس ماله (الشباب)، وإلهائه عن مواجهة التحديات القائمة، وتغييبه عن الرسالة المنوطة به.. وساعتها لن يقوىٰ المجتمع علىٰ مواجهة الأخطار المحدقة به من الخارج؛ لأن المناعة الذاتية هي الأساس في رحلة العلاج والعافية..

وأصبح من المألوف أن نرىٰ مشاهد العري مبثوثة في المجلات والجرائد ووسائل الإعلام.. وكأن ذلك أمر عادي!

ونحن نذكر في هذا السياق، ما كشفته دراسة حديثة من أنه يوجد (112) قناة جنسية باللغة العربية واللهجات العامية.. ونذكر أيضًا الأثر السيئ الذي تحدثه في نفوس شبابنا أغاني الفيديو كليب وبرامج ستار أكاديمي.. وغير ذلك مما يهيج الغرائز خاصة في ظل الأزمات الاقتصادية المتراكمة، وما يترتب عليها من انسداد الأبواب المشروعة لتصريف الرغبات والشهوات.

وإذا أخذنا في الاعتبار ضعف الوازع الأخلاقي، وعدم قدرة الخطاب الديني علىٰ

استقطاب شرائح الشباب خاصة، وعجزه عن الالتحام والتماسّ مع قضايا المجتمع الحيوية.. لبدا لنا بوضوح حجم الكارثة التي تتهدد المجتمع وتستهدف شبابه.

وبدل أن تكون معرفتنا بالواقع بكل تفاصيله وسوءاته، هي البداية نحو سعي جاد لتغييره، والرقي به.. صارت معرفة هذا الواقع السيئ وتضخيمه، مقصودةً لذاتها، وغايةً في نفسها.. علىٰ طريقة الفن للفن!

ومن ثم انفصل الأدب- والفن وسائر نشاطات الفكر الإنساني- عن الأخلاق، وبُترت الصلة بينه وبين قيم الوحي.. مع أنها القيم التي يجب أن تكون الموجِّهة والحاكمة للإنسان في كل ما يبدع وينتج.

واقعية نظيفة!

أما في الرؤية الإسلامية، فإن (الوسطية) تمثل مَعْلمًا بارزًا من معالم المنهج الإسلامي، وبالتالي فهي تتبدىٰ في كافة نشاطات المسلم علىٰ مستوىٰ الفكر والممارسة.

فالوسطية الإسلامية تعني فيما تعني الجمع في تمازج وتكامل بين الثنائيات، التي طالما رسخ في أذهان البعضِ التعارضُ بينها، وعدمُ إمكان مزجها، وانتظامها في هدف واحد، مثل: العلاقة بين العقل والنقل، الغيب والشهادة، الروح والجسد، الواقعية والمثالية، الدنيا والآخرة، المرأة والرجل، الفرد والمجتمع، الدين والدولة..

ومن هنا، فالواقعية في المنهج الإسلامي واقعية نظيفة، أو واقعية بلا مخالب.. تعترف برغبات الإنسان النفسية والجسدية، وتسعىٰ لإشباعها دون إثارة وتهييج.. تضع في حسبانها قبضة الطين ولا تغفل عن نفخة الروح.. تعيش يومها الواقع بحلوه ومرّه، وتستعد أيضًا ليوم يقوم فيه الناس لرب العالمين.

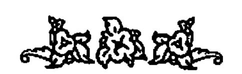
وهي في كل ذلك تستهدي بقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ (القصص)، وقول الرسول ﷺ: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍ حقَّه» (رواه البخاري).

نموذج عملي:

لقد عرضت لنا سورة (يوسف) نموذجًا عمليًا لكيفية تناول الواقع والمشاعر الإنسانية بتقلباتهما وتعرّجاتهما، وكيفية تصوير النفس البشرية حتىٰ وهي في أضعف حالاتها.. ليكون ذلك عبرة للقائمين علىٰ أمر التوجيه والتربية من المربين والأدباء وأيضا الفنانين، ألاَّ يقفوا عند الواقع وما هو كائن، بل يجب أن يتجاوزوا ذلك إلىٰ المثُل الرفيعة وما يجب أن يكون.

فقد تناولت (سورة يوسف) موقفًا حرجًا في حياة نبي الله يوسف ﷺ كأشد ما يكون الحرج في التناول والعرض، ومع ذلك عرضته السورة الكريمة في تصوير دقيق وفي الوقت نفسه في تصوير عفيف، وذكرت لنا كيف راودت امرأة العزيز يوسف عن نفسه، بعد أن هيَّأت نفسها، وأعدت الأسباب، وغلقت الأبواب، وحذَّرته وتوعَّدته.. لكنه استعصم بالله، ولجأ إليه، وراعىٰ حق سيده الذي أحسن مثواه.. فعصمه الله من الوقوع في الفاحشة، وجعله قدوة للشباب الذين تحاصرهم المغريات، وتحيط بهم من كل جانب!

فجاءت القصة في مجملها وتفاصيلها ترغِّب في الفضيلة، وتحثُّ علىٰ مراقبة الله، وحفظ حرمات الآخرين.. وأيضًا تحذر من المعصية وعواقبها الوخيمة.. فهل يتعلم الذين يتناولون أخبار الجرائم والحوادث، كيف يعرضونها بصورة تنفِّر الناس منها، وتبيِّن لهم شؤمها.. بدل أن يزيّنوا لهم ارتكاب الفواحش، ويدلّونهم علىٰ أيسر الطرق إليها!



الأخلاق وحدها لا تكفي...

* خلال الأزمات الاقتصادية والارتفاع الجنوني للأسعار علىٰ مستوىٰ دول عدة، نجد كثيرًا من الأصوات والكتابات تتعالىٰ مطالبة التجار وموزعي السلع والبضائع بأن يتقوا الله ويراعوا ضمائرهم ويرأفوا بأحوال الناس، وألا يدفعهم الجشع والرغبة في الربح إلىٰ زيادة الأسعار دون الأخذ في الاعتبار ما يجب عليهم من مسئولية أدبية ومعنوية تجاه مجتمعهم.

والعجيب أن تأتي هذه الأصوات ممن بيدهم القرار، والحل والربط.. وكأنهم تحولوا من دورهم الذي يخول لهم- بل يفرض عليهم- إصدار التشريعات، وسنّ القوانين، والأخذ علىٰ يد الظالم وردعه بالعقوبات اللازمة.. إلىٰ مجرد واعظين، يكتفون بتوجيه النصائح والإرشادات!

ورغم أن هذه الدعوات محمودة في مجملها، حيث إنها تحض علىٰ التحلي بمكارم الأخلاق، وتدعو إلىٰ مشاركة الناس في همومهم ومعاناتهم.. إلا أنها- في رأيي- دعوات تفتقد نصفها الآخر، وشقها المكمل، بل والذي قد يكون الأهم في منظومة معالجة الأزمات الاقتصادية.

إنني أعتقد أن معالجة الأزمات الاقتصادية يجب أن تعتمد علىٰ شقين متكاملين، لا يغني أحدهما عن الآخر.. وإلا كنا مثل من ينظر إلىٰ الأشياء بعين واحدة؛ فتأتي رؤيته- حتمًا- ناقصة غير معبرة عن الحقائق كما هي.

فالأخلاق والقانون هما الشقان اللذان يجب أن يضعهما أمامه من بيده القرار وهو يحاول أن يخفف عن الناس معاناتهم، خاصة عن الطبقات الفقيرة التي لا تجد من يحميها من جشع التجار واحتكارهم، ومن الرغبة العمياء عند أكثرهم في الثراء بغض النظر عن المشروع واللامشروع، والحلال والحرام!

لأننا إذا قلنا بأن التذكير بالأخلاق والمسئولية الأدبية يكفي لأن يقلع الناس عن

الاحتكار والممارسات غير المشروعة.. فما فائدة القانون إذن؟! وكيف يمكن أن نضمن أن يرتدع من تسول له نفسه الخروج عن الحدود المشروعة!

وهل إذا خرج أحد عن الإطار المشروع، نقف منه موقف المتفرج والواعظ الذي يكتفي بتوجيه النصح والإرشاد، أم نلزمه - بقوة القانون - أن يراعي حق الله سبحانه وحق المجتمع!

* إنني لا أقول إن القانون يغني عن الأخلاق، أو إن الأخلاق تغني المجتمع عن القانون.. ولكني أعتقد أنهما متكاملان ومتساويان، وضروريان للحفاظ علىٰ توازن المجتمع واستقراره وعافيته، وضبط العلاقة بين شرائحه وطبقاته.

بل إنني أذهب إلىٰ أكثر من ذلك وأقول: إن القانون متىٰ كان مراعيًا لجميع فئات المجتمع، وآخذًا في الغاية التي يرمي إليها مصلحةَ الجميع.. هو أقوىٰ أثرًا وأفضل وسيلةً في ردع الذين لا يهمهم إلا تحقيق مصلحتهم الشخصية، ويرفعون شعار: (ليذهب الآخرون إلىٰ الجحيم).

ولعل هذا المعنىٰ هو ما قصده أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ حين قال: إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، أي: لَيَرْدَعُ بالسلطان أكثر مما يردع بالقرآن.

سبحان الله.. حتىٰ القرآن الكريم قد لا تنفع مواعظه وتوجيهاته أولئك الذين قست قلوبهم، وتيبَّست مشاعرهم، وتجمدت إنسانيتهم.. فهم - حينئذ - أحوج إلىٰ سياط القانون، لتوقظهم من سباتهم وغفلتهم.

* وما قررناه توًّا من ترابط (القانون والأخلاق) فيما يتصل بوضع الضوابط والتوجيهات للعملية الاقتصادية كمثال.. يصدق بالدرجة ذاتها في مواجهة الذين يشيعون الفاحشة بين المؤمنين، ويعبثون بغرائز الشباب، ويريدون أن يبدلوا قيم المجتمع، ويجعلوا منه مسخًا مشوهًا تموج فيه الرذيلة، وينخر ذئاب البشر في حياته وأعراضه وحرماته.. مُدَّعين - زورًا وبهتانًا - أن التقدم لا يكون إلا بالانحلال، والحرية الزائفة، والمتاجرة بجسد المرأة، والتقليد الأعمىٰ لما يأتينا من الغرب من مفاهيم وعادات.

هؤلاء الشياطين من الإنس قد لا يجدي معهم كثيرًا الوعظ والإرشاد، ولا ينفع معهم أن تخاطبهم بأن يحافظوا على القيم والمبادئ، بل يجب أن نشهر سيف القانون في وجوههم، ونأخذ على أيديهم، ونحصن المجتمع من شرورهم ومفاسدهم.

أما أن نترك القنوات الفضائية والمجلات الإباحية ينتشران في المجتمع، ونطلق لهما العنان زاعمين أن ذلك من ضرورات الحرية، أو نقول إن الحق والفضائل كفيلان بإبطال مفعولهما.. فهذا لا يجوز، لا عقلًا ولا شرعًا.. لأن الشبهة أو الفتنة ربما صادفت قلبًا خاليًا فتمكنت منه، وربما سمعها أو رآها متذبذب فَزَلَّتْ قدمه- بعد ثبوتها على الحق- وانجرفت إلى الهاوية..

❁ ولذلك نؤكد أن السلطان والقرآن، أو القانون والأخلاق، أمران مترابطان ومتلازمان.. وبمعنى آخر: الأخلاق وحدها لا تكفي..



منظمات المجتمع المدني.. إشكاليات تعرقل فاعليتها

نستطيع في البداية أن نثبت هذه الخلاصة، ونحن مطمئنون إلىٰ صحتها تململًا، وهي أن واقع منظمات المجتمع المدني في دولة ما، هو أحد المؤشرات المهمة للتعرف علىٰ حيوية المجتمع، وموضع هذه الدولة من سُلم النهوض والتقدم.

فإذا كان المجتمع المدني هو «حلقة الوصل» بيْن الجماهير- كأفراد، أو حتىٰ كوحدات صغيرة من الأسرة والعائلة- وبين الدولة كإدارة مركزية تدير المجتمع وتتحكم في موارده وخريطته السياسية والاجتماعية بوجه عام.. فإن أهمية "حلقة الوصل" هذه، تنبع من أنها كلما اتسعت وتَمتَّنت، كان بمقدورها أن تحدث توازنًا بين سلطة الدولة وميلها بالضرورة إلىٰ التغول وإحكام السيطرة علىٰ المقدرات والمصائر، من جهة، وبين حقوق الشعوب وتطلعاتها في العيش الكريم والتمتع بحقوقها السياسية والاجتماعية، من جهة أخرىٰ.

فالمجتمع المدني بفلسفته ومنظماته هو عين المجتمع الساهرة علىٰ مصالحه، وعقله المشغول بكيفية تقاسم المسئولية مع الدولة في النهوض بالمجتمع.

ويُقصد بـ«المجتمع المدني»: «المجتمع المنظم تنظيمًا طوعيًا إلىٰ حد كبير، سواء أكان في تكوينه السياسي، فلا تكون السلطة فيه قاهرة، أم من الناحية الاجتماعية والثقافية فيما يخص علاقات الناس بعضهم ببعض»[1].

ويرىٰ بعض الباحثين أن المجتمع المدني هو «مصطلح حديث في العلوم السياسية، وتمَّ استعارته من علم الاجتماع؛ ويشير إلىٰ كافة المنظمات والهيئات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية الخيرية المستقلة عن الحكومة وعن المؤسسة العسكرية ومؤسسة الشرطة داخل النظام السياسي، فهو يضم الأحزاب وجماعات الضغط وجماعات المصالح والنقابات والاتحادات والنوادي

1() الشيخ راشد الغنوشي: «مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني»، ص: 81، الرسالة، 1999م.

والمنظمات غير الحكومية والجمعيات الأهلية وجمعيات النفع العام»[1].

إذن المجتمع المدني هو «القطاع غير الحكومي الذي يطلق عليه أحيانا القطاع الثالث؛ لتمييزه عن الحكومة من ناحية، والقطاع الخاص من ناحية ثانية»[2].

ومن المهم أن نشير هنا إلىٰ أن المجتمع المدني بالمفهوم الحديث قد نشأ في الغرب مع نشوء الدولة الحديث وبعد صراع مرير للتخلص من سلطة الكنيسة؛ ولذلك يرد مصطلح «المدنية» أو «المدني» في مقابلة «العسكري» و«الكَنَسي». فيقال «الزواج المدني» في مقابل «الزواج الكنسي».

وللأسف، يحاول بعض المثقفين العرب- ممن يقلدون النموذج الغربي- أن ينشروا «العلمانية» في بلادنا تحت ستار مصطلح «المدنية»، بعد أن انكشف المصطلح الأول وصار سيئ السمعة، فلجأوا إلىٰ «المدنية»، وهي كلمة برَّاقة[3].

علمانية النشأة والتوجه:

لئن كان مصطلح المجتمع المدني حديث النشأة، إلا أن مضمونه لم يكن غريبًا عن الحضارة الإسلامية، بل لم ينهض بتلك الحضارة إلا المجتمع المدني متمثلًا حينذاك في "الأوقاف"، التي امتدت بمظلتها لتشمل كل مناحي الحياة، من إقامة المساجد، ونشر العلم والإنفاق علىٰ طلبته، إلىٰ معالجة المرضىٰ وإقامة البيمارستانات (المستشفيات)، إلىٰ سقاية الماء وتوفيره في أماكن السفر والراحة وفي الطرقات (الأسْبِلَة)، إلىٰ الإنفاق علىٰ تحرير العبيد وإعتاق الرقاب، إلىٰ تزويج الشباب ورعاية الأيتام والفقراء، حتىٰ مهمة الدفاع عن حدود الدولة وتجهيز الثغور

---

(1) د. عبد المنعم المشاط: «قاموس المفاهيم السياسية»، ص: 70، 71، مكتبة الشروق الدولية، ط1، 2011م.

(2) ناهد عز الدين: «المجتمع المدني»، ص: 93، كتاب رقم 5 ضمن «موسوعة الشباب السياسية»، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، 2007م.

(3) تعرض د. رفيق حبيب لخدعة ترويج "العلمانية" تحت ستار "المدنية" في مقاله: "الدولة المدنية.. دينية أم لا دينية؟" علىٰ الرابط: http://www.masress.com/dostor/16096

والرباطات، وهي الوظيفة الأساسية للدولة ولا تدخل ضمن إطار المجتمع المدني بالمفهوم والاختصاصات المعاصرة[1].

لكن نشوء منظمات المجتمع المدني - بالمعنىٰ المعاصر - في البيئة الغربية، جعل ثقافة وأولويات تلك المنظمات مرتبطة بالبيئة والثقافة الغربية، خاصة في المساحات التي تتمايز فيها الحضارة الإسلامية عن نظيرتها الغربية، أعني مجالات المرأة وحقوق الإنسان والحريات العامة. حتىٰ إن واقع تلك المنظمات ليبدو كأنه لا يفصل بين «العلمانية» و«المدنية».

مع أن «المدنية» في النظر الصحيح هي الانتقال من الحياة البدائية إلىٰ العمل المؤسسي الذي يستمد أساسه من رضا الجماهير، لا من فوهة البنادق، ولا من ادعاءات العصمة والأخذ المباشر عن الله، وهذا يتطابق مع المفهوم الإسلامي في أن سلطات الدولة مرجعها إلىٰ الأمة التي من حقها أن تولي وتعزل من تشاء، فالحكام نواب عن الأمة، بينما الأمة مستخلفة عن الله، ولذلك لم يكن الحكام معصومين في حين أن الأمة ورد بحقها الحديث الشريف عن ابن عمر: «لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَىٰ ضَلالَةٍ» (حسنه الألباني)[2].

فالدولة الإسلامية دولة مدنية، لا كهنوتية ولا عسكرية، والمرجعية الإسلامية لتلك الدولة لا تنفي أن حكامها مسئولون أمام الأمة، تحاسبهم وتعزلهم متىٰ خرجوا عن حدود اختصاصهم.. كما أن مدنية الدولة لا تعني بالضرورة علمانيتها، فالمدنية هي الإطار الذي ينظم المجتمع والدولة، وقد تكون المرجعية في هذا الإطار: علمانية أو إسلامية.

فهذه إشكالية خطيرة، أن واقع منظمات المجتمع المدني يربط بين «المدنية»

---

(1) راجع المزيد عن دور الأوقاف في الحضارة الإسلامية في: د. إبراهيم البيومي غانم، «الأوقاف والسياسة في مصر»، دار الشروق، ط1، 1998م.

(2) يقول د. محمد عمارة: «الأمة هي المستخلفة عن الله سبحانه وتعالىٰ، أما الدولة فهي الخليفة عن الأمة بالاختيار، والخاضعة لرقابتها وحسابها، فالطرف الأصيل في نظرية الخلافة والاستخلاف هو الأمة»، انظر كتابه: «هل الإسلام هو الحل؟ لماذا وكيف؟»، ص: 112، دار الشروق، ط2، 1998م.

و«العلمانية»، بينما الجهة بينهما منفكة، ولا رابط بينهما.

وتمثل هذه النقطة- علمانية النشأة والتوجه- أحد المآخذ المهمة علىٰ منظمات المجتمع المدني، ينبغي تجاوزها إلىٰ فضاء الحضارة الإسلامية، التي تجمع بين القيم والمنهج الإلهي وبين مسئولية البشر عن الفهم والفعل، وتقرر قابليتهم للصواب والخطأ.

التمويل والتأثير:

الإشكالية الثانية التي تتعلق بواقع منظمات المجتمع المدني، هي ما يتعلق بتمويل تلك المنظمات وتلقيها معونات من الدول الغربية، مما لا يخفىٰ وليس محل شك. ومن البدهي أن من يملك مصادر التمويل يمتلك بالضرورة مفاتيح التأثير!

في الخبرة الإسلامية، كانت مؤسسات المجتمع تقوم علىٰ التمويل الذي توفره «الأوقاف» المرصودة من أهل الغنىٰ واليسار، الأمر الذي كان يمنح تلك المؤسسات استقلالية عن دوائر الحكم والسلطة، ويجعلها عين المجتمع ولسانه الصادق. ولنا أن نقارن بين مواقف العلماء حين كانت الأوقاف الخيرية تتكفل برعايتهم، وحين صاروا جزءًا من رعايا الدولة!

أما في الخبرة المعاصرة، فقد أصبحت الدولة تحتكر مفاتيح إدارة المؤسسات والنشاطات، فيما يعرف بالدور المركزي للدولة. وهذه المركزية أضعفت المجتمع، وحدَّت من فعالية مؤسساته.

وإذا كان المجتمع الغربي قد نجح كثيرًا في الذهاب بعيدًا عن سطوة الدولة ونفوذ الكنيسة- وهما الجهتان اللتان كانتا تتقاسمان السلطة والثروة- وأوجد لنفسه مؤسسات «مدنية» تعبر عنه وتشبع تطلعاته، فإن الأمر مازال في طور التشكل في بيئتنا الإسلامية، خاصة بعد أن صارت المساحة الممنوحة لـ"الأوقاف" أقل بكثير مما كان في الماضي، بل إن بعض الدول صادرت أموال الأوقاف وأدخلتها ضمن منظومة الدولة!

هنا، لا تجد منظمات المجتمع المدني- وهي منظمات نخبوية في معظمها لم تجتذب جماهير كثيرة- أمامها إلا التمويل الغربي، الذي يأتي مقرونًا بأجندته

وخريطته الفكرية التي تعبر في الأساس عن البيئة الغربية لا العربية الإسلامية.

والتحدي المطروح هو كيف توجد تلك المنظمات لنفسها مصادر تمويل وشبكات اتصال مع الجماهير؛ لتبتعد عن التمويل المشروط والأجندات الغربية؟

صحيح أن كثيرًا من الجمعيات الخيرية الإسلامية تجاوزت تلك النقطة بمراحل، لكن تبقىٰ مساحة الحرية التي تتحرك فيها صغيرة جدًا، خاصة بعدما أثير - في الغرب - عن ارتباطها بما يُسمىٰ «الحرب علىٰ الإرهاب»، وما قيل عن ضرورة تجفيف منابعه الفكرية والمالية!

الحرية.. رئة المجتمع:

الآن نصل إلىٰ الإشكالية الثالثة، والمتمثلة في سقف الحريات المتوافرة لمنظمات المجتمع المدني.

كما سبق، فإن تلك المنظمات هي نائبة عن المجتمع في مواجهة تغول الدولة ومركزيتها، وهي المركزية التي لا تخلو من جور علىٰ حقوق الإنسان، بدرجات متفاوتة من مجتمع لآخر.

فبعض الدول ترىٰ في منظمات المجتمع المدني - خاصة ذات الطابع الحقوقي والسياسي - مصدرَ قلق لها، إذ هي تراقب ممارسات السلطة، وتكشف سوءاتها، وتحاول أن تنتزع مساحات من الحرية لصالح المواطن، وكفي بذلك مصدرًا للقلق والشك.

صحيح أن كثيرًا من الدول قد تفسح مجال الحرية بصورة أكبر للمنظمات ذات الطابع الخيري والاجتماعي، لكن هذا يأتي فقط لأن تلك المنظمات تخفف العبء عنها، وتقوم بما يجب أن تقوم به هذه الدول أصلًا! ولذلك ما إن تشعر بعض الدول بأن وجود وانتشار تلك المنظمات ذات الطابع الخيري والاجتماعي قد بدأت تظهر له بعض الانعكاسات السياسية والحقوقية، حتىٰ تسارع هذه الدول إلىٰ تقليص مساحات الحرية، وتضييق الخناق من جديد.

وفي هذا الصدد، يجب التأكيد علىٰ أن الحرية هي الرئة التي تتنفس من خلالها منظمات المجتمع المدني، بل المجتمع كله، ولم يعد مقبولًا أن تكون مركزية الدولة

ذريعة للجور على حقوق الإنسان ومصادرة تطلعات الشعوب، وبدون الحرية فإن الحديث عن تطوير أداء منظمات المجتمع المدني- بما يجعلها شريكًا للدولة في التنمية والنهوض- هو حديث أجوف، لا قيمة له على أرض الواقع.

ثقافة التطوع:

العمل التطوعي هو جوهر ولب العمل المدني. والسؤال- الذي يمثل الإشكالية الرابعة- هو كيف ننشر ثقافة العمل المدني، بحيث لا تتحول منظمات المجتمع المدني في النهاية إلى مؤسسات نخبوية منعزلة عن الجماهير، وبالتالي تفقد تأثيرها والهدف الأساسي المرجو منها؟

فتلك المنظمات قد أنشئت لخدمة المجتمع والرقي به، وهي تنبع من المجتمع وتصب فيه، وتستمد منه روافدها المالية والبشرية.

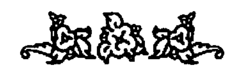
في المنظور الإسلامي، نجد أن «الفرد» مخاطب بجملة من الأوامر والأحكام مثل «المجتمع» و«الجماعة»، فحديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» (رواه البخاري)، لم يترك عذرًا لمعتذر بقلة العلم والوقت حتى يمارس الدعوة إلى الله.

وحديث أبي هُريرة الذي قال فيه النبي ﷺ: «كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» (رواه البخاريُّ ومسلِم).. يحث كل مسلم على أن ينفع المجتمع من جنس ما يحسنه ويتقنه، ولو بكلمة طيبة فهي له صدقة.

وهكذا يغرس الإسلام في المسلم أنه كفرد مطالب بأن يفيد مجتمعه، ويكون فيه عضوًا صالحًا معطاء.. وهذا هو جوهر العمل المدني، فالمؤسسات تتكون من أفراد، وما لم يترسخ عند أفراد المجتمع -خاصة منذ الصغر- أن العمل التطوعي ضرورة للمجتمع، ولا بد أن يسهم فيه كل فرد بنصيب، مهما كان ضئيلًا، فلن تزدهر منظمات المجتمع المدني.

إذن لابد أن تتكاتف المؤسسات، التربوية والتعليمية والإعلامية، لغرس قيمة العمل التطوعي وترسيخه في المجتمع.

تلك أربع إشكاليات تعرقل فاعلية منظمات المجتمع المدني.. ولا مناص من التفكير جديًا في تجاوز تلك التحديات؛ حتى تكون هذه المنظمات بالفعل شريكًا للدولة في التنمية، ومعبرًا صادقًا عن هموم المجتمع واهتماماته.



الانتحار.. مسئولية فرد أم مجتمع؟!

كان من الممكن أن تكون الأخبار الواردة عن حوادث الانتحار التي تشهدها بعض مجتمعاتنا العربية، والتي تتزايد يومًا بعد يوم.. ضمن عشرات الأخبار التي تُنشر يوميًا على صفحات الحوادث، ولا يلتفت إليها أحد، لولا أنها جاءت محمّلة بالكثير من الدلالات، التي تجعل من الانتحار «عنوانًا» على عمق الأزمة التي تعيشها تلك المجتمعات.

ويؤسفنا أنه لا تتوافر لدينا إحصائيات على وجه الدقة لعدد حالات الانتحار، وهذا يأتي ضمن فقداننا لخرائط أخرى عن ظواهر متعددة تشهدها مجتمعاتنا، وباتت تهددها بجدية في غفلة منا!

ناقوس خطر:

لو صعدنا بالموضوع إلى إطاره الفلسفي، وأفقه الواسع، نرى أن مجتمعاتنا- خاصة على المستوى الاجتماعي- لم تكن بعيدة عن التغيرات والآثار المترتبة على بروز الظواهر العالمية التي ليس آخرها ظاهرة العولمة، الأمر الذي أثر بالسلب على منظومة القيم التي تحكم مجتمعاتنا، وتنظم علاقة أفرادها بعضهم ببعض، مما أدى إلى خلخلة هذه المنظومة وإحلال مكانها منظومة قيم أخرى، غذّت الدوافع التي تقف وراء تزايد حالات الانتحار.

ومما يشهد على مدى التغيير الذي أصاب مجتمعاتنا؛ زيادة نسبة الطلاق، والتفكك الأسري، وغياب قيم التراحم والتواصل، وتمكّن ثقافة الاستهلاك التي جعلت الأسر تتنافس وتتباهى بالكماليات بما يشكل عبئًا على رب الأسرة، وأصبحت الزوجة تتخلى عن زوجها عند أول محنة واختبار، بل صارت هي التي تمثل له المحنة والاختبار! بعد أن كانت تقاسمه الرغيف الواحد، وتعينه في البأساء والضراء، وتعيش معه على «الحلوة والمرّة» كما يقال في الأمثال الشعبية.

كما ظهرت من جديد في مجتمعاتنا «الطبقيّة» بشكل صارخ، يباعد بين الأغنياء والفقراء، ويقلّص من حجم الطبقة الوسطىٰ، التي كانت عماد المجتمع وعموده الفقري وقاعدته الصلبة. إضافة إلىٰ ذلك، انتشرت الفردية والأنانية ومحاولة «تشييء» الإنسان، أي: تحويل الحياة إلىٰ أشياء مادية، مما جعل الجانب المادي هو الحاكم في العلاقات الاجتماعية بعد نزع الصفة الإنسانية عنها..

فلم يجد المرء الذي تكالبت عليه الهموم بُدًّا من التضحية بما تبقىٰ لديه من روح، بعد عجزه عن تلبية الحد الأدنىٰ من «حقوق» جسده!

صحيح أن حالات الانتحار لم تبلغ بعدُ حدَّ الظاهرة بالمفهوم العلمي، لكنها علىٰ كل حال ترقىٰ إلىٰ مستوىٰ أن تكون ناقوس خطر، ونذير شؤم، خاصة وأن الأسباب التي أدت إلىٰ تلك الحوادث ما زالت قائمة، بل ومرشحة للاستمرار والصعود، في ظل تفاقم الأزمات الاقتصادية، وما يترتب عليها من مشكلات اجتماعية لا حصر لها.

الإنسان لا يملك نفسه:

إن الله سبحانه هو الذي خلق الموت والحياة، وكما لا يقدر علىٰ الخلق إلا الله جلَّت قدرته، فلا يجوز أن يتصرف أحد في الإماتة والإعدام إلا بما شرع الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الإسراء).

فالأصل في الدماء الحُرْمة، فلا تُراق إلا بما شرع الله، مثل: القصاص، وردّ العدوان، إلىٰ غير ذلك من الأسباب التي ليس من بينها قطعًا إزهاق النفس بالاختيار، وهو ما يسمىٰ: (الانتحار)، فمَن تجاوز ذلك فقد باء بغضب من الله؛ لأنه تعدّىٰ علىٰ قضاء الله وأحكامه، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من تَردَّىٰ من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يَتردَّىٰ فيها خالدًا مُخلّدًا فيها أبدًا، ومن تحسّىٰ سُمًّا فقتل نفسه فسّمُه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالدًا مُخلَّدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يَتوجَّأ بها في نار جهنم خالدًا مُخلَّدًا فيها أبدًا».

يضاف إلىٰ ذلك، تأكيد الإسلام أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وأن الإنسان خُلق في كبد، وأنه كما جاء في الحديث الصحيح: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلا وَصَبٍ، وَلا هَمٍّ، وَلا حُزْنٍ، وَلا أَذىً، وَلا غَمٍّ، حَتَّىٰ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» (رواه البخاري أبي هريرة).

ولذا، فلا يليق بالمسلم أن يقنط وييأس عند وقوع المصائب، بل عليه أن يواجهها متوكلًا علىٰ الله، ومستمدًا العون منه، ومستعينًا عليها بما وهبه الله من سلامة العقل، وحسن التفكير، وقوة الإرادة.. الإرادة التي تجعل الإنسان يبدأ من الصفر غير محبط ولا يائس.

كما أن الإسلام قد شرع جملة من الآداب الاجتماعية، من شأنها - عند وضعها موضع التطبيق والتنفيذ- أن تحفظ للمجتمع تماسكه، وللفرد حقوقه، وتعصمهما من التفكك والضياع. وما أجمل قول الرسول ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ؛ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَىٰ شَيْئًا تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ» (رواه البخاري ومسلم).

التكافل فريضة

بل إن الإسلام جعل التضامن والتكافل بين أفراد المجتمع فريضة تندرج فيما يسميه الفقهاء: فرائض الكفاية؛ لأن فلسفة الإسلام في المال تقوم علىٰ أن الإنسان يملك المنفعة فقط، بينما الذي يملك الرقبة وجدير بأن يسمىٰ «المالك» علىٰ وجه الحقيقة هو الله سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد: 7) ، فالإنسان مُستخلف في المال، ومُؤتمن عليه، وهو مُقيّدُ التصرفِ في ماله الخاص بضوابط وضعها الشرع الحكيم، وهي ضوابط تجعل من أهدافها دائمًا تحقيق الموازنة بين حقّ الفرد وحق الجماعة.. بين الملكية الخاصة والملكية العامة.

وفي ضوء هذه الأهداف جاءت أحاديث الرسول ﷺ، مثل قوله: «مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللهِ وَبَرِئَ اللهُ مِنْهُ، وَأَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ صَبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُم ذِمَّةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ» (أخرجه الحاكم عن ابن عمر، وقال الحافظ

المنذري: وفي هذا المتن غرابة وبعض أسانيده جيدة). وقوله أيضًا فيما رواه عنه أنس: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَىٰ جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ» (أخرجه البزار والطبراني وحسّنه السيوطي).

ومن هنا، فقد أكد كثير من الفقهاء أن في المال حقًّا سوىٰ الزكاة، وفسّروا الأحاديث التي تفيد غيرَ ذلك[1] بأن المراد منها: أن الحقوق التي تجب في المال نوعان: حقٌّ يجب في المال بسبب المال، وبصفة مستمرة حتىٰ ولو لم يوجد فقراء، وهو الزكاة التي حدد الشرع الأنواعَ التي تجب فيها ونِسَبَها، وحقٌّ يجب في المال بسبب أمر عارض، وليس له نسبة مقدّرة، وهو أنواع كثيرة من الحقوق قد تتعدىٰ نسبة الزكاة المقررة، وهذه الحقوق تدخل ضمن فروض الكفاية.

وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال في شرح حديث «ليسَ في المالِ حقٌّ سِوىٰ الزكاة»: «أي ليس فيه حق يجب بسبب المال سوىٰ الزكاة، وإلا ففيه واجبات بغير سبب المال، كما تجب النفقات للأقارب والزوجة والرقيق، والبهائم، ويجب حمل العاقلة، وقضاء الديون، ويجب الإعطاء في النائبة، ويجب إطعام الجائع وكسوة العاري فرضًا علىٰ الكفاية، إلىٰ غير ذلك من الواجبات المالية، لكن بسبب عارض»[2].

وهكذا يتبين لنا بوضوح أن الإسلام حرص علىٰ إقامة مجتمع التكافل والتراحم، الذي يتوافر فيه «حدّ الكفاية» فضلًا عن «حدّ الكفاف»، وأنه قد عالج ذلك بربطه الوثيق بين الإيمان بالله ومفهوم العمل الصالح من ناحية، وبين السعي في قضاء مصالح الناس وسدّ ما ينزل بهم من فاقة من ناحية أخرىٰ..

كما يتبين لنا- وهذا ما نحب أن نلفت النظر إليه- أن المجتمع ليس بريئًا مما يلحق أفراده من أزمات وكوارث، وإنما هو بتفككه وتقاعسه مسئولٌ بدرجة كبيرة عما يترتب علىٰ هذه الأزمات من نتائج كارثية ومدمرة.

---

(1) مثل حديث: «ليسَ في المالِ حقٌّ سِوىٰ الزكاة»، الذي تكلم العلماء كثيرًا في سنده، وقال النووي عنه في «المجموع»: «إنه حديث ضعيف جدًا لا يُعرف».

(2) مجموع الفتاوىٰ 7/ 316.

علاقة طردية

ثمة أمر بالغ الأهمية، وهو أنه عند معالجة الإشكاليات الاجتماعية، يجب أن نستحضر دائما أن العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة طردية وجدلية، أي علاقة (تأثير وتأثر)، فكلما كان المجتمع متماسكًا ومتراحمًا كان الفرد صالحًا في سلوكه.. مقبلًا علىٰ الحياة.. متفائلًا في غده.. راسخًا أمام المحن.

أما حين يترهل المجتمع، وتنقطع أواصره، ويذهب بعيدًا عن منهج ربه وخالقه، فمن غير المتصوّر أن ينشأ الفرد الصالح؛ لأن المسألة المقررة، كما يذكر الأستاذ محمد قطب، هي علىٰ هذا النحو: «من الفرد المتوازن ينشأ المجتمع المتوازن، وفي المجتمع الصالح ينشأ الفرد الصالح، تلك نظرية الإسلام، وهي نظرية لا تغفل الفرد ولا تغفل المجتمع، ولا تبالغ في تقدير واحد منهما علىٰ حساب الآخر»[1].

وللإجابة عمّا إذا كان الانتحار مسئولية فرد أم مجتمع؟ ينبغي الانتباه- إضافة لما سبق- إلىٰ نقطتين مهمتين:

أولًا: أن أي ظاهرة يشهدها مجتمع ما، تكون نتيجة لحزمة من التغيرات المتراكمة، والأسباب المتنوعة والمتداخلة، وما الظاهرة إلا عنوانٌ لمجمل هذه التغيرات، بينما في تفاصيل الموضوع يتشابك العامل الاقتصادي مع الاجتماعي مع السياسي مع قلة الوعي وانعدام الإيمان وضعف الإرادة... ولذا، فالعلاج الصحيح يقتضي النظر إلىٰ الأسباب مجتمعة، وإنْ تفاوتت نسبة حضور بعض هذه الأسباب.

ثانيًا: أن مسئولية المنتحر المباشرة عن فعله هو، لا تنفي تحمّلَ المجتمع لبعض هذه المسئولية كما أكدنا توًا، وإنْ اختلفنا في تقدير حجم مسئولية كل من الفرد والمجتمع، ومن ثم يجب ألا ننشغل كليةً بالمشهد الأخير للحادث ونغفل عن الجذور الكامنة وراءه، والخلفيات المؤثرة فيه، التي قد تحتل مساحة ربما أكثر من لحظة خروج الروح، أو بالأدق «إخراجها».

والخلاصة المهمة التي أريد التأكيد عليها هي أن طريقة رؤيتنا لفعل المنتحر

---

(1) «الإنسان بين المادية والإسلام»، ص: 128، دار الشروق، ط4، 1995م.

والتماس الأعذار له؛ لأنه قد يكون «ضحية» وليس «جانيًا»، ومحاولة النظر بإنصاف لكل الملابسات.. لا تعني أبدًا رضاءنا بهذا الفعل، الذي يقرر الإسلام أنه من أعظم الكبائر، وقنوطٌ من رحمته، ويؤدي بصاحبه إلىٰ عذاب الآخرة بعد بؤس الدنيا، إنْ لم يتداركه الله برحمة منه ولطف.

لكن الاكتفاء بالحكم علىٰ المنتحر لا يحل مشكلة، ولا يمنع جريمة، فالأَوْلىٰ أن ننشغل بمنع أسباب المشكلة، ونكِلَ الحكمَ إلىٰ الله، علاَّم الغيوب... فنحن دعاة لا قضاة، أو هكذا يجب أن نكون.



الفصل الثالث

في
علاقتنا بالغرب



قراءة في بواكير المواجهة مع الغرب

أود أن أبدأ بالإشارة إلىٰ ملاحظتين مهمتين:

الأولىٰ: أن ثمة نوعًا من «الكتب» و«الكتابات» لا يكفي أن نقرأه مرة واحدة ثم نطويه باحثين عن غيره مما تخرجه المطابع ونعجز عن حصره، ذلك أن هذا النوع من «الكتب» و«الكتابات»- الذي يمكن أن نقرأه مثنىٰ وثلاث ورباع وزيادة!- هو الذي يمنحنا رؤية أعمق بذاتنا، وفهمًا أدق لمسار تاريخنا، ومن ثم، يُبصِّرنا بطريقنا ومستقبلنا، ويكون بمقدوره أن يجعل عقولنا نابضة بالأفكار ذات القدرة التغييرية، وليست «الأفكار الميتة» كما يسميها مالك بن نبي.

كما أن هذا النوع من «الكتب» و«الكتابات» يولِّد عندنا أفكارًا كلية، ونموذجًا معرفيًا نابعًا من هويتنا وحضارتنا، له خصائصه وسماته الذاتية؛ مما يجعلنا قادرين علىٰ التعامل مع الأفكار والمناهج الوافدة من موقع «الندية»، وليس من موقع «الانسحاق الحضاري»، والشعور بالدونية.

وأنا أرىٰ أن كتاب **(ودخلت الخيل الأزهر)** للأستاذ **محمد جلال كشك**- رحمه الله- واحد من هذه «الكتب» و«الكتابات» التي يجب أن نستحضرها دائمًا، ونتمثلها في وعينا وحركتنا ونحن في هذا الظرف الدقيق من حاضرنا.

أما الملاحظة الثانية، فهي أن من الظواهر المؤسفة في حياتنا الفكرية، أن تاريخنا الحديث- سواء في جذوره والعوامل التي شكلت روافده وأثرت فيه، أو في تجلياته في الواقع الذي نعيشه غضًا طريًا- لا يزال الجدل حوله ممتدًا بين طرفي نقيض!

وهذا الجدل والاختلاف حول تاريخنا وهويتنا وثقافتنا لا يبدو أمرًا سهلاً هينًا، يمكن تجاوزه أو التغافل عنه؛ لأن الخلاف حول تفسير التاريخ- كما يقول الأستاذ كشك في هذا الكتاب المهم- «ليس ظاهرة ترف، ولا هو مجرد خلاف حول تفسير الماضي، بل هو بالدرجة الأولىٰ خلاف حول الطريق إلىٰ المستقبل!.. فالأمم دائمًا

تُهرع إلىٰ تاريخها في لحظات محنتها، تستمد منه الإلهام والدعم النفسي، بينما يلجأ خصومها دائمًا إلىٰ تزييف التاريخ وتشويهه؛ لتضليل الجماهير، وإفساد الطريق إلىٰ المستقبل».

التأسيس المعرفي لإدارة المواجهة:

ينطلق الأستاذ جلال كشك في دراسته لتاريخنا الحديث مما يسميه «المدرسة الوطنية» في مواجهة «المدرسة الاستعمارية»، مبينًا أن هاتين المدرستين تقفان علىٰ طرفي نقيض فيما يتصل بالرؤية العامة لأسس النهضة، وبتصور العلاقة مع الغرب.

وحسب قوله، فبينما ترىٰ «المدرسة الاستعمارية» أن القومية والتقدم والتحديث والتحرر كلها معانٍ ومفاهيم وسلوك تكتسب من خلال التعاون مع المحتل، وبمعونته وإرشاده، فإن «المدرسة الوطنية» ترىٰ أن هذه المفاهيم لا معنىٰ لها، إلا إذا كانت مرتبطة بسلوك وطني مقاوم للوجود أو النفوذ الأجنبي، بجميع أشكالهما.

فالتقدم أو الرجعية ليست موقفًا معلقًا في الهواء، ولا قضية فكرية خارج إطار الزمان والمكان، بل موقف يتحدد بأحداث حركة التاريخ ومصلحة الأمة المعينة. فلا يجوز أن نصف بالرجعية المجاهدة الجزائرية التي كانت تتمسك بالحجاب طوال زمن الاحتلال كرمز للمقاومة، وكوسيلة لها في المرحلة الأخيرة.

في كتابه هذا، يفضح جلال كشك بحقائق التاريخ ووقائعه أولئك الذين يريدون- أمثال لويس عوض- أن يجعلوا من الاحتلال الفرنسي بداية نهضتنا وتقدمنا في العصر الحديث، وأن يهيلوا التراب بهذا التحديث المزعوم علىٰ حضارتنا التي أضاءت الدنيا طيلة عشرة قرون- كما أكد ذلك ول ديورانت في «قصة الحضارة»- حين أرادوا أن يحتفلوا منذ سنوات علىٰ مرور مائتي سنة علىٰ الاحتلال الفرنسي، أو «التنوير» الفرنسي كما يزعمون!

والرسالة التي نذر لها كتابه الضخم هي التأكيد علىٰ أن «سلوك الحملة الفرنسية لا يختلف كثيرًا عن سلوك سائر الغزاة، إلا فيما أضافته الحضارة الحديثة من وسائل إتقان القتل الجماعي، والتنكيل بالشعوب التي ترفض الاحتلال!».

وهو في سبيله لتقرير هذه الحقيقة لا يعتسف الحقائق، ولا يزوِّر التاريخ- شأن أولئك المروِّجين للاحتلال- إنما يكتفي بسرد الشواهد والأحداث مع ربطها بعضها ببعض، ومع إزالة الغبار الذي وُضع- عمدًا- ليحجب الحقائق الناصعة- والمؤلمة أيضًا- عن الأجيال اللاحقة حتىٰ يسهل بعد ذلك تغريبها، وتزييف وعيها بماضيها وبمستقبلها معًا.

أهمية الكتاب تتجلىٰ أيضًا في أنه سلط أضواءً كاشفة علىٰ تركيبة المجتمع المصري إبان المواجهة مع الغرب، فأطال الحديث عن شرائحه وطبقاته (المماليك، العلماء، التجار والأعيان، العامة «مساتير الناس»)، مُبْرِزًا عوامل القوة فيه، وطبيعة (أهل الحل والعقد)، وموقع الأزهر وعلمائه في الخريطة الفكرية والسياسية.

إضافة إلىٰ أنه ألقىٰ الضوء علىٰ سياسات الاحتلال، والوسائل التي سلكها لإخفاء أطماعه وللولوج إلىٰ مكامن القوة في المجتمع المصري، وكيف أنه استطاع شق «الصف الوطني» بإثارة التمايز الديني واستغلاله لبعض الأقباط (مثل «المعلم يعقوب» الذي يُقدَّم باعتباره رائد القومية المصرية بينما هو نموذج للعمالة للمستعمر، وكان منبوذًا من المسلمين والأقباط علىٰ السواء!)، وشق «الوحدة الفكرية» عن طريق إضعاف الأزهر وبَذْر ما يسمىٰ بتحرير المرأة (نابليون استقدم معه 300 امرأة للترفيه! ثم كانت أول قائمة بما طلبه من فرنسا أن ترسل له 100 مومس فرنسية! ولا يخفىٰ علىٰ أحد ما يترتب علىٰ مخالطة هؤلاء للمجتمع المصري!).

لهذا يعد (ودخلت الخيل الأزهر) مرجعًا مهمًا في التعرف علىٰ بواكير المواجهة بين الشرق والغرب، وفي التأسيس المعرفي لإدارة المواجهة معه علىٰ أساس من الثقة بالذات، واستيعاب دروس «التاريخ»، الذي هو- حسب تعبير كشك- الطريق إلىٰ المستقبل.

فضلًا عن أنه يقدم لنا «مهارة» في كيفية قراءة «ما بين السطور» في كتابات من يزوِّرون الحقائق، وضرورة استحضار الجو الفكري والنفسي للتاريخ، حتىٰ يمكننا أن نكتشف زيف قراءة أمثال لويس عوض، حين يعرض هذا الأخير نصوصًا من «تاريخ الجبرتي» ويستنتج منها ما يتراءىٰ له بعد أن يلوي عنقها، ويصرفها عن وجهتها

في تعسف واضح، وكذب صريح.. وما أكثر ما يلجأ لذلك لويس وأمثاله؟!

ولذلك لا نبالغ إذا قلنا: إن (ودخلت الخيل الأزهر) يمثل- عن جدارة- إحدى الركائز المهمة التي تؤسس للمدرسة التاريخية الإسلامية الوطنية، بعد أن استطاع أن يبلور رؤية منصفة واضحة المعالم لتاريخنا الحديث.

الأزهر رمز الأمة:

المتأمل في مفردات المشهد الفكري والاجتماعي، الذي كان قائمًا بمصر قبل مجيء الحملة الفرنسية، يتأكد له بوضوح أن شيوخ الأزهر كان لهم دور قيادي في نهضة المجتمع، وهو دور ينبثق- كما يقول كشك- من الفهم الإسلامي المتميز لدور الدين ورسالته في الحياة.. ومن ثم، فلم يكن شيوخ الأزهر رجال كهنوت منعزلين عن مجرى الحياة العامة، ولا كانوا كما تصوَّرهم بعض الأقلام المعاصرة غارقين في الروحانيات لا يعلمون شيئًا عن العلوم الوضعية وأحوال المادة.. إنما برع كثير منهم في علوم الطب والفلك والرياضيات.

وبعد سرده لعدد من المواجهات التي حدثت بين شيوخ الأزهر والمماليك، مثل احتجاج الشيخ الشرقاوي على زيادة الضرائب والمكوس، وقيادته مظاهرة ضخمة ضد إبراهيم بيك ومراد بيك حتى أجبرهما على إبطال تلك الزيادة... **يخلص الكاتب إلى أن هؤلاء الشيوخ- بمساندة طوائف الشعب- لم يكونوا مجرد «قوة رمزية»، بل كانوا يستطيعون دائمًا تحويل كل مظهر سخط إلى إضراب عام، يتطور إلى مواجهة شاملة تطالب بإصلاحات أوسع من حدود المشكلة التي أثارت الحادث، فكان بإمكانهم مواجهة الأمراء، وفرض مطالبهم، وإجبارهم على التراجع والتسليم ولو بنية الغدر.**

ثم يذكر الكاتب أنه ما إنْ سقطت «الدولة» المصرية في معركة إمبابة حتى أصبح الغازي المحتل والأزهر وجهًا لوجه.. فقاد الأزهر مقاومة الأمة على جميع المستويات.. من تنفيذ الإضرابات الشاملة إلى تنظيم حركات سرية تُغذِّي أعمال المقاومة الشعبية التي وصلت ذروتها بثورة القاهرة الأولى والثانية.. إلى أعمال الاغتيال التي نفذها بنجاح طلبة الأزهر «المجاورون».

وبعد سلسلة من الصدامات بين الاحتلال وبين الشعب بقيادة الأزهر توصل الاحتلال إلىٰ قناعة كافية وهي أنه ما لم تتم تصفية الدور القيادي الذي يقوم به «الأزهر»، فلن يمكن لأي استعمار غربي أن يستقر علىٰ ضفاف النيل..

لكن تصفية الأزهر لم تتم عن طريق احتلاله بالخيل فحسب، ولا بتسمير أبوابه ومنع الدراسة فيه، إنما تمت- كما يلفت كشك في أكثر من موضع- بتسمير باب قيادته الفكرية للأمة.. وذلك بتغريب المجتمع من حوله حتىٰ تُقطع جذوره أو تذوىٰ.. ويبدو نشازًا متخلفًا ومثارًا للسخرية والتندر.. ومن هنا كان اهتمام الغرب بترويج فكرة (التغريب) بين صفوفنا، فمنذ الحملة الفرنسية وهناك استثمارات «فكرية» إلىٰ جانب الاستثمارات «المالية»، بل وكجزء منها، تهدف إلىٰ إقناعنا: أنه لا تحديث إلا بالتغريب.

ويخلص الكاتب في هذا الصدد إلىٰ حقيقة مؤلمة قائلًا: الحق أن مكانة الأزهر لم يُتطاول عليها ولم تُمتهن إلا علىٰ يد نابليون، إلىٰ أن أنجز المهمة الحُكم المتغرِّب الذي بدأه محمد علىٰ وأكمله من جاء بعده.

وفيما يتصل بـ «التغريب» وأهدافه، يؤكد الأستاذ جلال كشك أن الاحتلال عمل علىٰ تزييف التاريخ بهدف إجهاض موجة العداء المتزايدة ضد العدو التاريخي والقومي والحضاري، الذي شلَّ تقدمنا وأبقانا في أسر التخلف خلال مائة وخمسين عامًا حاسمة في تاريخ العالم، ثم رمانا بابنته الشرسة المتوحشة المدججة بتكنولوجيته. وبدلًا من تنمية هذا الوعي وتوجيه هذا النفور من الغرب في اتجاه الحرب الوطنية، بدأت محاولات «التحبيب» في الغرب، فهو الذي حضَّرنا، وهو الذي علمنا، وهو الذي عرَّفنا لأول مرة معنىٰ كلمة «حرية» و«دولة» و«أمة» و«قومية»، بل هو الذي أخرجنا من القرون الوسطىٰ، وحررنا من الاستعمار التركي، وبعث فينا الروح القومية.. فعلىٰ يديه عرفنا أننا مصريون! أو عرب!

وهنا يلفت الكاتب أنظارنا إلىٰ أن الغرب وهو يدعونا إلىٰ تقليده والاقتداء به، فهو- أي الغرب- يقصد تقليده في العادات الاجتماعية والمظاهر السلوكية، دون

إكسابنا العلوم العملية التي تقوم عليها النهضة، فالتغريب يبدأ من إقناع الأمة الشرقية أنها متخلفة في جوهرها، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها، ومن ثم لا بد من انسلاخها تمامًا عن كل ما يربطها بماضيها، ويميز ذاتها، وإعادة تشكيل المجتمع علىٰ الطراز الغربي من ناحية العادات والظاهر السلوكية مع إبقائه متخلفًا عاجزا عن إنتاج سلع الغرب، عاجزًا عن اكتساب معرفة الغرب، فإذا ما اكتسب بعض أفراده هذه المعرفة، يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم، فيضطرون إلىٰ النزوح إلىٰ عالم المتفوقين.

الطبيعة الاستعمارية للغرب:

ثمة إشكالية تستوقف الدارسين لتاريخ الصراع بين الغرب والشرق، تتعلق بطبيعة الغرب والدوافع التي كانت من وراء استعماره للشرق، ونهب ثرواته قرونًا متطاولة.

وهذه الإشكالية هي: هل كان الغرب يعبِّر في استعماره هذا عن موقف مبدئي، ونزعة متأصلة فيه، أم كان ذلك مجرد نزوة منه، وعملًا شاذًا لا يُقاس عليه؟!

يذهب جلال كشك- والتاريخ يؤيده- إلىٰ الرأي الأول، مؤكدًا «أن الحملة الفرنسية لم تكن ظاهرة منفصلة عن التاريخ السياسي الاستعماري الفرنسي»، ذلك أن فرنسا ما قبل الثورة كانت تخطط باهتمام بالغ لغزو مصر، وقد قام الملكيون الفرنسيون بدراسات واتصالات حينئذ.. وفي عهد لويس السادس عشر طالب (سان بريست) سفير فرنسا في الأستانة بغزو مصر، وعلىٰ إثر إلحاحه أرسلت فرنسا البارون (دتوت) إلىٰ مصر لدراسة ثغورها ومواقعها، ووصفت مهمته بأنها «مهمة سرية لشرقي البحر المتوسط»، وكانت مهمته الحقيقة استطلاع إمكانية الاستيلاء علىٰ مصر وإحالتها إلىٰ مستعمرة فرنسية، لذلك أبحر إلىٰ الإسكندرية في صحبة العالِم الطبيعي (سونيني) علىٰ ظهر الفرقاطة (أطلانط) وواصل رحلته إلىٰ رشيد ثم إلىٰ القاهرة.

ثم كتب هذا البارون في تقريره بعد الزيارة أن الاستيلاء علىٰ مصر لن يكون إلا «احتلالًا سِلْميًا لبلد أعزل»، وأنه يرىٰ ضرورة إذاعة منشور «يطمئن الأهالي إلىٰ أن

الفرنسيين قدموا بوصفهم أصدقاء وحلفاء للسلطان، ومحرِّرين لهم من ربقة المماليك»... وهذا بالضبط ما فعله نابليون بعد ذلك..

وهنا يتساءل الكاتب تاركًا الإجابة للقارئ الذكي: فهل كان ثمة فرق بين فرنسا في عهد الملكية «البابوية» وفرنسا في عهد الثورة «التنويرية»!

وإيضاحًا للحقائق التي تحكم سير الأمم والحضارات، يبين كشك أن الثورة لا تغير مصالح الدول، بل على العكس هي في الغالب تعطي دفعة قوية جديدة لتحقيق هذه المصالح. إن النظام القديم ينهار عندما يعجز عن تحقيق مصالح الدولة، ولكن ما من ثورة حتى الآن (ثورة تنبع من المجتمع وليست مؤامرة مفروضة عليه من الخارج) قد تنكرت لمصالح الدولة؛ لذلك كانت الثورة البورجوازية الفرنسية هي استمرار للمصالح الفرنسية، التي أصبح النظام الملكي عاجزًا عن تحقيقها، كانت مصالح فرنسا تحتل مكان الصدارة بين المصالح الغربية في مصر قبل الحملة الفرنسية، كان لها قنصل عام في القاهرة وقنصليتان في الإسكندرية ورشيد. والتجار الفرنسيون الذين كانوا في القاهرة منذ العهد الملكي كانوا أول المرحبين باستيلاء فرنسا الثورة على مصر.

ويقول «هيرولد» صاحب كتاب «بونابرت في مصر»: «إن سيلًا من المذكرات عن المسألة الشرقية، ظل يغمر وزارة الخارجية الفرنسية طول عشرين عامًا (1770-1790م).. أما عن مصر، فإن جميع المذكرات تقريبا أيدت الاستيلاء عليها».

المهمة «الحضارية» لنابليون!

دائمًا ما تحاول القوى الاستعمارية أن تخفي وجهها القبيح بشعارات زائفة أمام الشعوب التي تستنزف ثرواتها.. فمثلًا تدَّعي كذبًا أنها جاءت لتعلمهم الحرية والمساواة والديمقراطية، أو لتخلصهم من الحكام المستبدين (نتذكر دعاوى بوش قبل غزو العراق!).. كما يؤكدون أن لديهم «مهمة حضارية» تجاه العالم، وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك كما قال نابليون عن نفسه في منشور وزعه على المصريين: «ولكن يأتي وقت يرى فيه جميع الناس أنني أهتدي بأوامر السماء». (بوش أيضًا كان يقول: إن الرب أمره بغزو العراق!)

لكن هل أفلحت تلك المنشورات في تزييف الوعي كما أراد أصحابها؟! يجيب الأستاذ جلال كشك قائلًا: رغم كل البيانات والمنشورات والتحليلات التي صاحبت وأعقبت الحملة الفرنسية إلىٰ يومنا هذا، فإن نابليون كان صريحًا وواضحًا في تحديد مهمته في مصر، عندما قال: «سأستعمر مصر»!

«سأستعمر مصر، وأستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والممثلين. إن ست سنوات تكفيني للذهاب إلىٰ الهند لو سارت الأمور سيرًا طيبًا».

لكن الأمور لم تسر سيرًا طيبًا، لأسباب عديدة، أهمها وأخطرها: أن الشعب المصري، أن أولاد العرب، أمة الإسلام، رفضت «المهمة الحضارية» لنابليون، عرفت دون جدل ولا لجاجة أنه قادم «لاستعمار مصر»، فقاومت هذا الاستعمار وأفشلته.

وحينما نزل نابليون الإسكندرية وأخمد مقاومة المدينة بالرصاص والسناكي والقتل والحرق، وزَّع منشورًا علىٰ الأهالي يبشِّرهم فيه أن «رب العالمين القادر علىٰ كل شيء قد حكم علىٰ انقضاء دولتهم (أي المماليك).. إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك، أعبد الله سبحانه وتعالىٰ وأحترم نبيه والقرآن العظيم.. وبعونه تعالىٰ من الآن فصاعدًا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية»!

فهذا الخداع والمكر لم يكن لينطلي علىٰ الشعب المصري لأنه كما يؤكد المؤلف «لم تكن هنالك فرصة لتضليل الجماهير، أو إخفاء طبيعة الصراع؛ وانفجرت مع الطلقة الأولىٰ ذكريات وتاريخ الحروب الصليبية بين الغرب والشرق».

ويقدم لنا الأستاذ كشك مفارقة عن تلك «المهمة الحضارية» التي زعمها نابليون، فيقول: «لم يكن لدىٰ المصريين الذين بقوا أحياء من سكان الإسكندرية حاجة إلىٰ قراءة المنشور حتىٰ لو أتيحت لهم الفرصة، فقد كانوا يرون المهمة التحريرية رأي العين، وليس من رأىٰ كمن قرأ. ولكن يبدو أن بعض حفدة «التراجمة» [أمثال لويس عوض] الذين استأجرهم كليبر، والذين صاغوا المنشور بلغة عربية ركيكة، يحاولون الآن، وبعد كل هذه السنين التي عشناها في ظل «الرسالة الحضارية» للغرب

الاستعماري، يحاولون اليوم الدفاع عن مهمة أجدادهم بإعطاء أهمية خاصة لهذا المنشور، ووصفه بأنه وثيقة خطيرة تعلن تحرر المصريين وقوميتهم.. مع أن نابليون نفسه وصفه في (سانت هيلانة) «بأنه قطعة من الدجل، ولكنه دجل من أعلىٰ طراز»، واعترف أن «علىٰ الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا؛ لأنه السبيل الوحيد إلىٰ النجاح».

المقاومة الشعبية الباسلة:

يسجل الجبرتي في تاريخه- وينقل عنه كشك فقرات مطولة- مقاومة الشعب المصري الباسلة للاحتلال الفرنسي، مبينًا أن هذه المقاومة امتدت في أنحاء القطر المصري، وشارك فيها جميع طوائف الشعب، فبمجرد أن دنس نابليون الإسكندرية بجنوده حتىٰ هبَّ المصريون لمقاومتهم بقيادة البطل محمد كريم- الذي أُعدم بعد ذلك- بالرصاص والأحجار، وأصيب كليبر ومينو.. حتىٰ إن المستشرق «هيرولد» ليشهد ببسالة هذه المقاومة فيقول: «من النادر أن يُصاب قائدان هذه الإصابات في الدقائق الخمسة الأولىٰ في أية حملة حربية!».. وقُتل اللواء «ماس» وخمسة ضباط آخرون، وكتب الجنرال مينو: «إن الأعداء قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم»، وبحسب تقرير بونابرت إلىٰ القيادة فإن «كل بيت تحول إلىٰ قلعة».

ثم جاء الرد الفرنسي عنيفًا ليقتل بلا هوادة- كعادته- دون تفرقة بين الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، ويذبح حتىٰ الذين احتموا بالمساجد.. ليفضح هذا العنف- كما يقول المؤلف- «المهمة الحضارية والرسالة التحريرية» التي زعم نابليون أنه مكلف بها، وجاء إلىٰ الشرق لنشرها!

ولم يكن أهل القاهرة- حين دنسها نابليون بعد ذلك- أقل بسالة من أهل الإسكندرية، ولا أقل نصيبًا من وحشية الفرنسيين وهمجيتهم!.. وتأتي هنا شهادة المسيو «ريبو» دالة كأعمق ما تكون الدلالة إذ يقول: «كان الجنود يعملون علىٰ إخماد الثورة بإطلاق الرصاص علىٰ الفلاحين، وفرض الغرامات علىٰ البلاد، لكن الثورة كانت كحيّة ذات مائة رأس، كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرىٰ أقوىٰ وأشد مما كانت، فكأنها تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلىٰ بلد آخر».

ويلخّص المؤرخ عبد الرحمن الرافعي- كما ينقل عنه كشك- قوة المقاومة التي اجتاحت الريف المصري في الصعيد والدلتا بقوله: «وصفوة القول إنه لم يكن لأمة عزلاء لا سلاح معها، أن تدافع عن كيانها بأكثر مما فعلت الأمة المصرية في عهد الحملة الفرنسية».

ثم تطورت المقاومة الشعبية إلىٰ كيان منظم سُمي «ديوان الشعب» يرأسه الشيخ السادات ليجهز المتطوعين للقتال.. وكان هذا «الديوان» وراء تفجير ثورتي القاهرة الأولىٰ والثانية.. ولذلك أعدم نابليون ثمانين عضوًا من أعضائه مرة واحدة، مبررا فعلته الشنيعة بأنهم «كانوا قومًا ذوي تفكير عنيف متطرف»! (هل تغيَّرت الاتهامات بعد قرنين من الزمان؟!)

وبعد ثورة القاهرة الأولىٰ في أكتوبر 1798م، ثار غضب نابليون، وأمر مدفعية القلعة بأن تسدد نيرانها إلىٰ الأزهر وما حوله من أحياء هي مركز الثورة.. ثم دخلت الخيل الأزهر، وأعمل الفرنسيون سيوفهم وبنادقهم في طلبته وشيوخه، ونهبوا الكتب ومزقوا المخطوطات، ونهب بعضها اليهود الذين كانوا في خدمة جيش الاحتلال.. ثم اتخذوا الأزهر إسطبلًا للخيل! حتىٰ تشفَّع الشيخ الجوهري عند نابليون طالبًا خروج الخيل من الأزهر، فأمر بالجلاء ثم ألقىٰ القبض علىٰ عدد من المشايخ وقطع رءوسهم في سجون القلعة بل وأعدم شيخ طائفة العميان!

ثم جاء كليبر بعدما رحل نابليون إلىٰ غير رجعة، وفي عهده قامت ثورة القاهرة الثانية فكانت أشد وأعنف من الأولىٰ.. واستطاع الطالب الشجاع سليمان (الحلبي) أن يقتل كليبر وأن يثأر للأمة الإسلامية كلها.. فحكموا عليه بالإعدام علىٰ الخازوق بعد أن تُحرق يده وهو حيّ!

وبحرق الإنسان الحي والقتل علىٰ الخازوق، ختمت الحملة الفرنسية- كما يقول جلال كشك متهكمًا- صفحتها (الحضارية!) في مصر، منبِّهة كأعنف ما يكون التنبيه كلَّ الذين خدعتهم الشكليات، وغرَّرت بهم أبواقُ الاحتلال.. نبهتهم إلىٰ أن الاستعمار هو الاستعمار.. وأن الحكم الوحشي هو وسيلته الوحيدة في مواجهة تطلع الشعوب، وحرمانها من حقها في التحرر والاستقلال.

التحدي مازال قائمًا:

كثيرة هي «الإضاءات» التي استطاع الكتاب أن يسلطها على مناطق «معتمة» في تاريخنا الحديث، بفعل المكائد التي تمارس لتشويهه كما أسلفنا.

فقد بين أبعاد الغزوة الفرنسية، أو اللقاء الأول بيننا وبين الغرب المتقدم، وأبعاد المقاومة التي شنها الشعب المصري ضد الغزاة المحتلين، وكيف كانت هذه المقاومة رائعة وخالدة لأنها كانت رفض أمة سليمة العقيدة نقية الجوهر،لم يتم بعد تغريبها ولا تدجينها، ولأنها كانت بقيادة النخبة الشرعية للمجتمع.

وأوضح كيف أن بذور «البعث الحضاري» المنشود كانت موجودة في طيات هذه المقاومة، وفي صفحات هذا الرفض للوجود الحضاري، ففي ثورة القاهرة الأولى ولدت «التنظيمات الوطنية»، وفي الثورة الثانية أوشكنا أن ندخل عصر «الانقلاب الصناعي» عندما صنع أجدادنا المدفع والبارود.

وفي معارك الصعيد ودمنهور ولدت «الوحدة العربية» عندما اختلطت دماء المجاهدين من الحجاز وتونس بدماء المجاهدين المصريين، وبلغت هذه الوحدة ذروتها بالبطل الشهيد «سليمان الحلبي»، الذي جاء من حلب ليثأر لمصر من كليبر السفاح.

كما كشف زيف ما يروج عن الدور الحضاري الذي لعبته الحملة الفرنسية، ملقيًا الضوء على أعمال التنكيل الوحشي التي ارتكبها جيش الاحتلال ضد المواطنين، ثم كيف كان موقف الإدارة الفرنسية استعماريًا تقليديًا عندما رفضت تشغيل المصريين في مصنع للجوخ خوفًا من أن يتعلم المصريون الصنعة!

أما الدرس الأكبر الذي نستخلصه من هذه الصفحة المؤلمة من صفحات تاريخنا، فهو- كما يؤكد جلال كشك- أن الحملة الفرنسية كانت بداية التحدي الحديث والحاسم الذي واجه الغربُ به الشرقَ الإسلاميَّ.. التحدي الذي لم يُجب عليه إلى الآن، سواء بسحقه أو الفناء فيه..

غير أن هذا التحدي قد استثار عناصر المقاومة في الأمة، بالرغم من أنه لم يصل

بالاستثارة إلىٰ المستوىٰ الذي يُمكِّن الأمة من التغلب علىٰ التحدي وقهره، ومن ثم تحقيق البعث الحضاري، وتخطِّي حافة الخطر.. كما أن هذا التحدي في المقابل لم ينجح في سحق مقاومة الأمة نهائيًا.

وللأسف، فإن الأمة العربية والإسلامية ما زالت تواجه هذا التحدي بنوبات من الانفعال، وارتفاع مؤقت في حرارة الرفض- كما هو حالها الآن تجاه فلسطين، وتجاه قضاياها المصيرية الأخرىٰ- دون أن تصل الأمة إلىٰ مستوىٰ الرفض الشامل، والمقاومة البنّاءة ذات النفس الطويل.. ودون أن يتوافر عندها الوعي العميق بمؤهلات التمكين وموجباته.



من صور لقاء الشرق والغرب:
المفكِّرون الغربيّون الذين أسلموا

يجب أن نعترف- بكل أسف- أن الفكر الإسلامي المعاصر لم يُغْنَ برصد وتسجيل ظاهرة (إسلام المفكرين الغربيين)، وسبر أغوارها، وتتبعها في عمقها وانتشارها؛ ولم يوفها حقها من النقد والتحليل، فضلا عن أن يضع في تصوراته وخططه كيفية الاستفادة من جهود هؤلاء المفكرين في فهم الواقع المعاصر بأبعاده وتشابكاته، وفي نقد الحضارة الغربية، وتعريتها، وكشف مواطن الضعف فيها.. تلك الحضارة التي لم يجد فيها الباحثون عن الحقيقة المجرَّدة ما يروي ظمأهم الروحي، ويشبع حاجتهم الفطرية، ويهدي عقولهم الحائرة، بعد أن شقت بهم وتاهت في منحنيات الإلحاد، وظلمات الفكر المادي؛ لأنها حضارة تحلق بجناح واحد هو جناح (المادة)، وتتجاهل افتقاره وحاجته لجناح (الروح)، حتىٰ غدت حضارة مؤهلة للانتحار، علىٰ حد قول المفكر الفرنسي رجاء جارودي.

ربما وُجدت بعض الدراسات التي تناولت المسيرة الفكرية لبعض هؤلاء المفكرين؛ مثل ما كتبه الدكتور عبد الحليم محمود في (أوروبا والإسلام)، والدكتور محمد سعيد البوطي في (شخصيات استوقفتني)، والمستشار محمد عزت الطهطاوي في (في الدعوة إلىٰ الإسلام بين غير المسلمين).. لكنها علىٰ أية حال دراسات متناثرة لم ترق إلىٰ مستوىٰ الجهد المأمول، وتدور في فلك شخصيات معدودة؛ بحيث يمكن أن نقول إنها تعاملت مع الظاهرة من منظور جزئي لم يستوعب انتشارها الواسع، ودلالاتها المتعددة.

وقد أضاع الفكر الإسلامي المعاصر- بهذا التجاهل أو التقصير في رصد الظاهرة- واحدة من أهم الوسائل التي كان من الممكن أن تسهم بفاعلية في بيان الوجه الحضاري للإسلام، وفي الكشف عن مقوماته ذات (الديناميكية) المتجددة، وفي

تأكيد قدرة الإسلام- كمنهج حياة، وسلوك مجتمع، وقانون دولة، وثقافة حوار وتعايش- علىٰ مخاطبة أرقىٰ العقول البشرية، ومجاوزة حدود الزمان والمكان، باعتباره الدين الخاتم الذي شُرِعَ للناس كافة.. والتي كان من الممكن أن تسهم أيضًا في بيان أن الإسلام ليس مجرد أطروحة من الأطروحات، أو بديلًا من البدائل، بل هو البديل كما يقرر السفير الألماني مراد هوفمان.

إن أهمية شهادات المفكرين الغربيين- خاصة فيما يتصل بنقد الحضارة الغربية- تكمن في أنها شهادات وُلِدَتْ من (رَحِم المعاناة)، وليس من حوارات الترف الفكري والجدل البيزنطي.. فأصحاب هذه الشهادات قد خبروا الحضارة الغربية، واكتووا بنارها، وأُصيبوا بشررها، وطالت رحلتهم في البحث عن الحقيقة حتىٰ وجدوها في الإسلام، فجاءت شهاداتهم تلك بمثابة (شهادة عيان) تدل بصدق ووعي علىٰ عمق الأزمة التي أحاطت بالحضارة الغربية، وعلىٰ قتامة الطريق المسدود الذي أوصلت إليه الإنسانَ المعاصر.

لقاءٌ ممكن:

لئن كانت جَرَتْ علىٰ الألسنة مقولة الشاعر الإنجليزي (كبلنج)- حتىٰ صارت مثلًا!- وهي أن الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا.. فإننا نستطيع أن نقول- بكل ثقة- إن هذا اللقاء ممكن وجائز، وغير مستحيل لا عقلًا ولا شرعًا ولا تاريخًا! بشرط أن تبتعد عنه (السياسة) بصخبها، ومؤامراتها، وصدامها، ووسائلها الخبيثة التي لا تفتأ تعمل علىٰ تشويه الآخر- خاصة الإسلام- وإلصاق التهم به ظلمًا وعدوانًا؛ لأن (السياسة الماكرة) جعلت الحضارة الغربية حضارة عدوانية، تبحث دائمًا لا عن صديق مخلص، ولا عن شريك تتبادل معه المنافع، بل تبحث عن عدو، توجِّه إليه سهامها المشْرَعة باستمرار، وآلاتها التدميرية الإبادية، فهي حضارة ترىٰ في وجود هذا العدو حلًا لتصدير أزماتها الداخلية المركَّبة، وسوقًا رابحة لتجارة الأسلحة.

بل يمكننا أن نقرر- دون تجاوز أو مبالغة- أن هذا اللقاء قد تمَّ فعلًا بإسلام المفكرين الغربيين، الباحثين عن الحق، والمتشوِّقين لإرواء ظمأ الروح، والراغبين

في الخلاص من الدوران في الحلقة المفرغة بين الإنتاج والاستهلاك، دون الالتزام بقيم تستطيع أن تجعل للحياة معنىٰ- كما يقول جارودي- أو أن تحفظ للإنسان إنسانيته وكرامته، فالتقىٰ- بإسلامهم- العقلُ المتحرر من القيود والأوهام بالقلبِ النقي، والفطرةِ السليمة، والمنهجِ الرباني الذي يهدي للتي هي أقوم.

فهؤلاء المفكرون يمثِّلون صفحة نقية من صفحات (اللقاء والحوار) بين الشرق والغرب، بل هم أنصع الصفحات!

لقد سبق أن التقىٰ الغرب بالشرق، ولمس آثار الحضارة الإسلامية عن قرب، وعاين أخلاق المسلمين؛ في صدقهم، ووفائهم، وحفظهم للعهود، وإكرامهم لمن يعيش بين أظهرهم- حتىٰ وهو علىٰ غير دينهم- في قرطبة، وطليطلة، وجنوب فرنسا، وغير ذلك من محطات اللقاء والحوار... فما أُكرهوا علىٰ ترك دينهم، ولا ظُلموا في أموالهم وأعراضهم، ولا مُنعوا أيّ حق وَجَب لهم، ولا مُورست ضدهم حملات تهجير ومراقبة واضطهاد، كما يحدث الآن مع الأقليات المسلمة في أوربا وأمريكا، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

وحتىٰ لا يكون ثمة اتهام بالانحياز إلىٰ حضارتنا، من دون أن تقوم دلائل مؤكدة علىٰ انحيازنا لها، وإيماننا بها.. فإننا نورد هنا شهادة أحد المستشرقين الذين تابعوا عن عمق مسيرة الحضارة الإسلامية، وهو (غوستاف لوبون) في كتابه المهم (حضارة العرب)، الذي يرصد فيه مظاهر التحول الجذري- المعنوي والمادي- الذي أحدثه المسلمون في بلد مثل الأندلس، كمثال واضح علىٰ تفرّد حضارتهم، وسموّ قيمهم، ورقي معاملتهم لغيرهم من أصحاب الديانات الأخرىٰ.

يقول لوبون: «استطاع العرب أن يحولوا إسبانيا، ماديًا وثقافيًا، في بضعة قرون، وأن يجعلوها علىٰ رأس جميع الممالك الأوربية، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانيا علىٰ هذين الأمرين، بل أثروا في أخلاق الناس أيضًا، فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإنْ شئت فقل حاولوا أن يعلموها، التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان، وبلغ حِلْمُ عرب إسبانيا نحو الأهلين المغلوبين مبلغًا كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر أشبيلية النصراني الذي عُقد في سنة

782م، ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عُقد في سنة 852م. وتُعدُّ كنائس النصارىٰ الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي، من الأدلة علىٰ احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم.

وأسلم كثير من النصارىٰ، ولكنهم لم يُسْلموا طمعًا في كبير شيء، وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين، قادرين مثلهم علىٰ تقلد مناصب الدولة. وكانت إسبانيا العربية بلد أوربا الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثيرًا جدًا»[1].

حوار لا صدام:

ومما هو جدير بالملاحظة والإكبار معًا، فيما يتصل بالمفكرين الغربيين الذين أسلموا، أن كثيرين منهم قد أكدوا ضرورة الحوار بين الشرق والغرب وأهميته، ولم ينساقوا وراء من يُروِّجون لحتمية الصدام بين الحضارات؛ لأنهم قد خلصوا من خلال تجربتهم ومعاناتهم، ومن خلال دراساتهم المستفيضة للتاريخ البشري، سِلْمًا وحربًا، إلىٰ أنه لا بديل عن الحوار والتعاون بين أبناء الحضارات المتعددة، وأنه لا يمكن أن يَحُول اختلافُ الألوان والألسنة والأعراق دون التعارف والتعاون، فتلك سنَّة من سنن الله الثابتة في خلقه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات).

كما وجد هؤلاء المفكرون- بالإضافة إلىٰ تجربتهم ومعاناتهم- في الإسلام وما يصوغه من تصورات ورؤىٰ ذات صبغة إنسانية وعالمية، المنقذَ والبديلَ عن المكائد والمؤامرات، التي تريد أن تخطف ركب الحضارة الإنسانية وتلقي به في أتون الصراع والمواجهة، تحت دعاوىٰ ونظريات عنصرية، مثل نهاية التاريخ وسيادة النموذج الغربي وحتمية الصدام، وتحت أطماع لا حدود لها، ولا تبالي بأن تضحي بأكثر من نصف البشرية (الفقراء) في سبيل راحة السادة والأغنياء.

---

(1) ص 276، 277، ط مكتبة الأسرة سنة 2000م.

وقد قدموا في ذلك دراسات ورؤىٰ جديرة بأن تكون محلَّ نظر وعناية، وأن يُستفاد منها ويُبنىٰ عليها.

وفي هذا المجال تبرز جهود المفكر رجاء جارودي الذي أسس- من قبل أن يسلم- مع منظمة اليونسكو «المعهد الدولي لحوار الحضارات» في عام 1976م. وقد ذكر أن من أهداف هذا المعهد «**إبراز دور البلاد غير الغربية وبخاصة الإسلامية وإسهامها في الثقافة العالمية، حتىٰ يتوقف الحوار ذو البعد الواحد من جانب الغرب، أو (المونولوج) الذي يقوم علىٰ وَهْمٍ وعقدة التفوق عند الإنسان الغربي**»(1).

ويرىٰ جارودي أن ما يمنع الغرب من الاعتراف بالدور الثقافي الذي أسدته الحضارة الإسلامية إليه، وساهمت به في تطور حضارته علىٰ النحو المعاصر، هو ما تكنه أوربا للإسلام من كراهية حتىٰ اليوم، لأن الاستشراق- وهو نافذة الغرب المعرفية علىٰ الإسلام- لم يدرس الإسلام من أجل الوقوف علىٰ حقيقته، بل اهتم به من أجل الصراعات الأيديولوجية.. ولذا يؤكد جارودي أن **الحوار بين الحضارات محكوم عليه أن يسلك طريقًا مسدودًا، إذا ظلَّت عقيدة أحد أطرافه غير مصقولة من صدأ قرون السيطرة والاضطهاد.**

وإزاء محاولات (تمييع الحقائق) التي نزاها في الحوارات التي تجري الآن بين بعض المسلمين والغربيين- والتي بسببها مازالت تلك الحوارات تراوح مكانها، ولا تؤتي الثمرة المرجوّة منها- فإن جارودي يتخذ موقفًا أكثر صراحة وصدقًا مع الذات، ومع حقائق التاريخ التي لا تحابي أحدًا، فيؤكد أن الغرب مُطالَب- بأكثر من ذي قبل- أن يعيد النظر في موقفه المتصلب والمتغطرس من الإسلام والمسلمين، فيقول بكل وضوح: «**يجب أن يدرك الغرب أنه مَدِين للحضارات الأخرىٰ وخاصة الحضارة الإسلامية.. وأن الحضارة الإسلامية أعطت الغرب أكثر وأخصب مما أعطاها المصدران الآخران: حضارة اليونان والرومان. وأن النظرة الغربية للإسلام تنطوي علىٰ مغالطات متوارثة، بعضها متعمَّد وبعضها مبطن، فالعرب لم يكونوا غزاة**

(1) من حواره مع مجلة «الأمة»، عدد 29، ص" 67، فبراير 1983م.

ظالمين، ولم ينقلوا [في عقيدتهم] من الأديان السابقة، ولم ينتشر دينهم بقوة السلاح، وقد آن الأوان لتبديد جميع هذه المغالطات، وإحلال الحقيقة محلَّها»[1].

نداءٌ للعقلاء:

لقد ظلت العلاقة بين (الشرق والغرب) مشحونة بالكثير من العداوات والحروب، مما رسَّب تشوهات كثيرة ما زالت متجذرة في (الوعي الجمعي) لدىٰ كل منهما، وقد كان للغرب- بشهادة المنصفين من أبنائه المستشرقين- الإسهام الأكبر في تشوّه تلك العلاقة، عبر حروبه الصليبية التي استمرت أكثر من قرنين من الزمان، وعبر موجات الاحتلال والإغارة علىٰ البلاد الإسلامية في القرنين التاسع عشر والعشرين، وأيضًا عبر تجدد عدوانه في الواقع المعاصر، كما نرىٰ في العراق وفلسطين وغيرهما.

لكننا مع كل ذلك، يجب ألا نظل أسرىٰ للمتهورين ومصاصي الدماء والمتاجرين بحرية الشعوب، ويجب أن يتنادىٰ العقلاء من كلا الطرفين بضرورة وقف نزيف الدماء، وبضرورة طيّ صفحة العداوات.. لتبدأ مرة أخرىٰ في تاريخ الإنسانية صفحةُ **اللقاء والحوار والتعارف والتعايش.. وما ذلك علىٰ العقلاء بعسير.**

---

(1) نقلًا عن مقال «بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية» للأستاذ أنور الجندي، مجلة «الهلال»، ص: 9، 10، مارس 1983م.

المرأة بين الإسلام والغرب
تجاربُ من رَحِم المعاناة

من المؤكد أن التعرف على الدوافع التي كانت من وراء إسلام الغربيين، يمنحنا رؤية ثاقبة بحقائق ديننا، وعوامل تميّزه وتفرّده التي قد نجهلها- نحن الذين وُلدنا مسلمين- لطول الألفة والعشرة بها.

كما أن معرفة هذه الدوافع توقفنا من ناحية أخرى، على عمق الأزمة التي أوصلت إليه الحضارةُ الغربية الإنسانَ المعاصر، وعلى النتائج الكارثية لهذه الحضارة المادية الإباحية؛ لأنها تجاهلت المعاني والغايات والقيم، واكتفت بالمادة وبريقها الزائف.

كثيرة تلك الأسباب التي تقف من وراء إسلام الغربيين.

* فقد تكون هذه الأسباب راجعة إلى **صفاء العقيدة الإسلامية**، ووضوحها، وخلوّها من الغموض والتعقيد اللذين يكتنفان العقائد الأخرى، كتلك التي تُطالب الإنسان بأن يعتقد وهو أعمى، لا عقل له، ولا تمييز لديه.

* وقد ترجع إلى **قدرة الإسلام على إشباع حاجات الإنسان الروحية والجسدية معًا**، والسمو به إلى درجات عليا من الصفاء النفسي، والألق الروحي.. ولا غرو، فالإسلام يلبي أشواق الروح ويعلو بها، دونما افتئات على قواعد العقل، وحقوق الجسد، ومقررات الفطرة السليمة، بعكس ما تدعو إليه الفلسفات والمذاهب التي تزعم أنها ترتقي بالروح، بينما هي في الحقيقة ترتكس بها إلى أسفل الدركات، حين تجعلها تهيم في عالم ليس له منطق، ولا تفكير يحكمه، إنما هي تُرّهات ومحض تهويمات.

* وقد تتمثل في **عبقرية النظام الإسلامي وتفرده**، سواء الاجتماعي منه أو الاقتصادي، فالإسلام في كليهما- كما في غيرهما- يراعي في اتزان ووسطية حقوق الفرد وحقوق المجتمع، سواء بسواء، فلا يبخس الفرد حقه، ولا يعطي المجتمع فوق ما يستحق، إنما يربط الفرد بالمجتمع في علاقة تكاملية، بحيث يعرف كلٌّ منهما

ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

غير أن ما نريد أن نلفت النظر إليه في هذا المقام، هو أنه برغم الواقع المتدهور الذي يحيط بالمرأة في عالمنا العربي والإسلامي، بفعل عوامل كثيرة ليس من بينها قطعًا الإسلام، وإنما هو سوء الفهم عن الإسلام!.. **فإن رؤية الإسلام الناصعة للمرأة ولدورها في المجتمع، كانت من أهم العوامل التي دفعت الغربيين لاعتناق الإسلام، وإعلان الولاء له، وجعلتهم يرون فيه المُنْقِذَ من الضلال، والهادي وسط الظلمات الحالكة.. وتلك مفارقة تستحق أن نقف معها وقفات.**

وحدة الأصل وتكامل الأدوار:

إن الإسلام ينطلق في رؤيته للمرأة ودورها من كونها جزءًا أصيلًا من المجتمع، فهي نصفه، وفي الوقت نفسه تلد النصف الآخر، وتقوم على تربيته.. فكيف يمكن إذن أن يتجاهل دورها المحوري والأساسي!

هو ابتداءً يقرر وحدة الأصل للرجل والمرأة، لأنهما خُلقا من نفس واحدة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء).

كما يقرر في وضوح أن النساء شقائق الرجال[1]، وأن المرأة مكلفة ومأمورة مثل الرجل، ولا تقلّ عنه في الحقوق والواجبات، وإنْ كان لكل منهما المجال الذي يتحرك فيه، مما يتناسب مع طبيعته النفسية والجسدية، ومع وظيفته الاجتماعية، فهما يتكاملان في الأدوار ولا يتناقضان في الأهداف والغايات، أما الاختلاف بينهما فيقع في الوسيلة التي يسلكها - أو ينبغي أن يسلكها- كل طرف منهما لأداء دوره المنوط به في تحقيق الاستخلاف وعمارة الأرض.

وقد جاءت النصوص في ذلك متواترة ومتضافرة، تقطع كلَّ شك، وتزيل كلَّ سوء تفسير وتأويل، ويكفي للدلالة على هذا قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ

(1) أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن أم سليم بنت ملحان أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ».

أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران: 195)، وقوله سبحانه أيضًا: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (التوبة).

أما في الغرب فإنهم كانوا يختلفون إلىٰ وقت قريب في كون المرأة إنسانًا، أو شيطانًا، أو حيوانًا؟! وهل لها روح مثل الرجل أم لا؟! ثم انتهوا بعد مناقشات ومجادلات إلىٰ أن المرأة إنسان خُلق لخدمة الرجل، وليحصل منها التناسل فقط!

ولذلك ينبغي ألا نندهش كثيرًا حين نرىٰ المرأة في الغرب قد تحولت- أو بالأدق: حُوِّلَتْ- إلىٰ سلعة تُباع وتُشترىٰ، شأنها شأن أي سلعة مادية لا روح فيها، فامتُهن جسدها، واستُخِفَّ بعقلها، واستُغلّت أسوأ استغلال تحت ستار خادع من الشعارات البَّراقة الزائفة.

تكريم معنوي ومادي:

إن مطالعة شهادات الغربيين الذين أسلموا، أبلغ في الدلالة علىٰ رؤية الإسلام للمرأة، ولدورها الحضاري في نهضة الأمة؛ لأن شهادات هؤلاء الغربيين تجارب لها مصداقيتها ووزنها، باعتبار أنها وُلدت من (رَحِم المعاناة)، وتشكَّلت من خلال معايشة الواقع الأليم ومصارعته، بجانب القراءات المستفيضة عن الإسلام وأيضًا في الإسلام.. وهي بذلك شهادات جديرة بالاهتمام والرَّصد والتحليل.

من هذه الشهادات شهادة السيدة الإنجليزية «**أليسون محمود**»، التي تتحدث عن تجربتها ورحلتها مع الإسلام فتقول: «كان أعظم ما عرفتُ، وضع المرأة في الإسلام، والمكانة الرفيعة التي تتمتع بها، وهي المكانة التي لم تَرْقَ إليها المرأةُ الغربية بعد، بلا أية مبالغة، يكفي أن نعلم أن للمرأة في الإسلام شخصية لها تقديرها، لقد سميت سورة باسمها وهي سورة «**النساء**»، وفيها ما يخص المرأة في الزواج، والإرث، والطلاق، وكيف يرعىٰ الإسلام حقوق المرأة، التي هي شريكة للرجل في رحلة كفاحه»[1].

(1) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبد الصمد، 3/ 103، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1995م.

وبالإضافة إلىٰ التكريم (المعنوي) الذي قرره الإسلام للمرأة، وأعاد به إليها شخصيتها الملغاة، فإنه كرَّمها أيضًا (ماديًا)، فاعترف لها بذمتها المالية المستقلة، وأكدَّ حقها في التملك، وممارسة البيع والشراء وسائر العقود المالية، بالرغم من أنه أوجب نفقتها في جميع حالاتها - سواء أكانت أمًا أم أختًا أم زوجةً أم بنتًا- علىٰ الرجل - أبًا كان أم أخًا أم زوجًا أم ابنًا- وبالرغم أيضًا من أنه جعل عمارة الأرض، بما تتطلبه من كدح وتعب ونصب، منوطة بالرجل وحده.. فكانت خِلْقَةُ الرجل- من قوة البدن، والقدرة علىٰ تحمّل المشاقّ، وغلبة العقل علىٰ العاطفة- مناسبةً ومتماشيةً مع المهمة التي كُلِّف بها، وأُنِيطَتْ به دون المرأة.

ولذلك خاطب الله أبا البشرية آدم حين أخرجه مع أمّنا حواء من الجنة، مُعْلِمًا إياه أنه وحده الذي تقع عليه مسئولية التعب والشقاء، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ (طه).

ويؤكد المفكر الفرنسي «رجاء جارودي» تميزَ الإسلام في إعطاء المرأة حقوقها المالية مقارنة بالغرب، فيقول: «إن القرآن منح المرأة حق امتلاك الأموال دون قيد أو شرط، بينما لم تنل هذا الحق في أغلب تشريعات الغرب إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين» [1] . ولما سُئل الكولونيل «دونالدس روكويل» عما أعجبه في الإسلام ذكر أسبابًا عدة، منها: «الإقرار الرائد بتقرير حق الملكية للمرأة»[2].

ثمة شهادة أخرىٰ مهمة في هذا الصدد؛ لأنها تُبدد بكلماتها الموجزة أوهامًا، لطالما أُلصقت زورًا وبهتانًا بالإسلام والمسلمين، وثار حولها منذ زمن بعيد لغطٌ كثير لم ينتهِ بعد، بل نراه يتجدد من حين لآخر، بمناسبة وبدون مناسبة! مثل: حق القوامة للرجل، وفريضة الحجاب علىٰ المرأة، ونصيب المرأة من التعليم والمشاركة بفاعلية في الحياة بصفة عامة.

---

(1) من كتابه «مبشرات الإسلام» نقلا عن مجلة «الأمة» القطرية، عدد (24) ذي الحجة 1402هـ ص: 21.

(2) في الدعوة إلىٰ الإسلام بين غير المسلمين، المستشار محمد عزت الطهطاوي، ص: 200، دار التراث ط 1، 1979م.

تقول الفتاة الفلبينية «أوليفا أبرازادور»: «لقد عرفتُ منهن [أي من اختلاطها بالمسلمات] أن الإسلام قد كرَّم المرأة، وأعطاها من الحقوق ما لم تحصل عليه المرأة في المجتمعات التي تدين بديانات أخرىٰ، وأدركت تمامًا أن (القوامة) لا تعني انتقاص المرأة، بل هي تقدير لظروف أنوثتها وضعفها؛ لأنها تفرض علىٰ الرجل أعباء قد تعجز المرأة عن تحملها بحكم تكوينها الغريزي الأنثوي. كما أدركت أن (الحجاب) هو صون وعفاف للمرأة، وارتقاء بها وبروحها من أن تكون مجرد جسد تنهشه الذئاب البشرية.. وإنني أتذكر أن الطبيبة التي عالجتني حين مرضت، كانت امرأة مسلمة ومحجبة، ولم يمنعها الحجاب من دراسة الطب والتفوق فيه»[1].

نقد الحضارة الغربية:

ومما هو جدير بالتقدير فيما يتصل بشهادات الغربيين الذين أسلموا، أنها شهادات لم تقف عند بيان عظمة الإسلام والإشادة به، بل تعدَّت ذلك إلىٰ نقد الحضارة الغربية المعاصرة، وبيان زيفها وتهافتها، خاصة فيما يتصل بالمرأة والأسرة، تقول السيدة «حرفية بال حليم»: «ما حدث في الغرب هو أن تيار الأنوثة [أي حركة تحرير المرأة] قد سلب المرأة حقوقها كامرأة، فقد أجبرها علىٰ الذهاب إلىٰ العمل، وقلَّ عدد الزيجات تدريجيًا، وهذا أمر يقوم الإسلام بتوفير الحماية منه. وأشعر الآن بأنني أكثر حرية، فقد أصابني الاضطراب بشأن القيم التي يتمسك بها مجتمعنا، فهو يتوقع أن تكون المرأة رجلاً وامرأة! وأن تكون مُغْرية وفاضلة! وأن تكون جميلة وذكية وأيَّ شيء آخر!»[2].

كما تؤكد السيدة البريطانية «ميشيل» - التي أسلمت وتسمت بـ«جميلة» - هذا المعنىٰ، وتنصح المرأة المسلمة قائلة: «يجب أن تعرف المرأة المسلمة أن حرية المرأة في أوربا ليست حرية حقيقية، فليس لها حقوق متساوية في الأجر والعمل مثل الرجل.. كما أن الرجل هنا لا ينظر إلىٰ المرأة نظرة تقدير واحترام.. هو فقط ينظر إلىٰ

(1) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، 3/ 121.

(2) صحيفة «الصنداي تليجراف» البريطانية نقلًا عن مجلة «الرسالة» المصرية، عدد 2، ص: 76، ذي الحجة 1422هـ.

جمالها وفتنتها، ولا يفكر فيها إلا كشريكة في الفراش!»[1].

فأين الذين ينادون في عالمنا العربي والإسلامي بحرية المرأة- وهم لا يريدون إلا حرية منفلتة من أية ضوابط- ويتخذون من الغرب قدوة لهم .. أين هم من هذه الحقائق، التي تُطْلعنا بصدق وعمق علىٰ الواقع المرير الذي تحياه المرأة في الغرب!

الإسلام غير المسلمين:

علىٰ أنه يجب في هذا الصدد تأكيد أن واقع المرأة المتدهور في عالمنا العربي والإسلامي، هو أمر لا علاقة له بالإسلام وتعاليمه وحقائقه؛ لأنه- كما رأينا توًا- ليس ثمة دين أنصف المرأة مثل الإسلام، وإنما يرجع هذا الواقع البئيس إلىٰ الفهم المغلوط للإسلام، وإلىٰ التطبيق الخاطئ لما شرع الله من أحكام وتوجيهات.. ولذلك يجب التفريق بين الإسلام كدين سماوي متكامل في أهدافه وتشريعاته، ومُنَزَّه عن الخطأ والتحيز لجنس أو نوع، وبين واقع المسلمين كسلوك بشري قد يقترب أو يبعد قليلًا أو كثيرًا عن المبادئ والقيم التي يدعو إليها.

ثم إن تقدم وضع المرأة أو تراجعه إنما يرتبط ارتباطًا وثيقًا برقي المجتمع كله أو بتخلفه، إذ من غير المعقول أن تنال فئة واحدة حقوقها دون تقدم المجتمع بفئاته المتعددة؛ لأن المجتمع في المحصلة هو نسيج واحد تنتظم فيه جميع الفئات، وتسير في خطوط متوازية، يأخذ بعضها بأيدي بعض.

ويشير إلىٰ هذه الحقيقة المستشرق المنصف «هستون سميث» بقوله: «أما حقوق المرأة المدنيَّة في العلم والانتخاب والعمل، فالقرآن يفتح لها أبواب المساواة، التي تنالها كلما تقدمت الأمم الإسلامية في عاداتها ومعاملاتها، فإذا كانت المرأة المسلمة لم تنل تلك الحقوق بعد قرن أو بضعة قرون كما نالتها المرأة الأوربية، فهذه أيضًا- أي المرأة الأوربية- لم تنل حقًا منها قبل عصر الصناعة الحديثة، وإنما نالت هذه الحقوق من الديمقراطية لا من الدين فلم يَجُزْ- كما يقول المسلم- أن يكون الإسلام مسئولًا عن هذه الحال»[2].

---

(1) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، 3/ 70.

(2) نقلًا عن «الإسلام دعوة عالمية» للأستاذ عباس محمود العقاد، ص: 112، ط مكتبة الأسرة 1999م.

أدري أن قضايا المرأة وإشكالياتها في عالمنا العربي والإسلامي تدور في حلقة مُفْرغة، بفعل الدسائس والمكائد التي يجتمع عليها أعداءُ الداخل من العلمانيين والمغرضين، وأعداءُ الخارج من المتربصين؛ خاصة المنظمات الدولية ذات الدور المشبوه؛ ولذا ما يكاد ينتهي الجدل حول إحدىٰ هذه القضايا حتىٰ يتجدد وبسرعة حول قضية أخرىٰ! وهكذا دواليك!

ولكني أردت أن أضع أمام الجميع- المتغرِّبين أو غيرهم من بني جلدتنا- هذه الشهادات الناصعة للغربيين الذين أسلموا، التي كما ذكرتُ وُلدت من (رَحِم المعاناة)- لعلَّ أن يكون في صدقها وواقعيَّتها وعمقها، ما يرشد الحائر، ويهدي الضَّال، ويدل علىٰ الصواب.. ويقيم الحجَّة علىٰ المعاندين..



العمرانُ الإسلامي.. في عُيونِ الغربيين

يخطئ من يظن أن الأحجار صماء، لا تنطق ولا تُبِين.. كلا، إنها وبقية نظائرها من المعادن، والأخشاب، والتراب، تحكي قصة الحضارة، وتشهد على القيم التي تنشأ في أحضانها، وتدل عليها..

ولذلك تتميز حضارة عن أخرى، ليس بما تحمل من قيم ومبادئ فحسب، بل بما تخلِّف من آثار وعمران تكون وجهًا آخرَ لتلك القيم والمبادئ.. وما يصدق بحق الإسلام، يصدق بغيره من الملل والنحل.

والعُمران مصطلح أشمل من العِمارة التي هي الأبنية، مثل المساجد والقصور والتكايا.. بينما العمران يشمل كل ذلك، إضافة إلى أنواع أخرى كثيرة، مثل النحت، وصناعة الأواني والخزف، والزجاج الفني، والنجارة.. هذا بجانب ما يحمله مصطلح «العمران» من دلالات معنوية حضارية تنطق بها تلك الشواهدُ المادية.

وقبل أن نتناول العمران الإسلامي وجمالياته في عيون المفكرين الغربيين، من المهم أن نشير إلى ملاحظتين أساسيتين:

الأولى: أن العمران الإسلامي بفنونه المتعددة قام على أساس من العقيدة الإسلامية، التي أُسِّست على التوحيد، فجاءت المساجد في بساطتها وروعتها تعكس وضوح العقيدة الإسلامية وصفاءها، بخلاف الكنائس التي تعكس عمارتها تعقيد المسيحية وتحريفها. وعرف المسلمون وأبدعوا فن «الأرابيسك» الذي يعكس فكرة التجريد واللامتناهي، لا التجسيد؛ تأثرًا بالتوحيد وبعدم قدرة الإنسان على الإحاطة بالذات الإلهية.

أما الملاحظة الثانية فهي أن العمارة الإسلامية تمتاز بخصيصة أساسية تعرف بخصيصة (الجَوَّانية)، فأي مبنى سواء أكان مسجدًا أم مدرسة أم مسكنًا، يحمل الطابَع الجَوَّاني، بمعنى أن عمارته الخارجية أقل شأنًا من عمارته الداخلية، ونرى

ذلك في المساجد الأولىٰ، كالجامع الأموي بدمشق وجامع عقبة في القيروان وجامع قرطبة، كما نراه بشكل شامل في المساكن والقصور. إن خصيصة الجَوّانية هذه تنسجم في المباني الخاصة، مع شاغل المبنىٰ الذي يبحث عن مجال خاص به يستقل فيه عن العالم الخارجي، ولذلك فهو يغني هذا المجال الداخلي بأروع الزخارف والأثاث المعماري، ويهمل الواجهات الخارجية لأسباب كثيرة أبرزها رغبته بعدم التظاهر والتفاخر والمضاهاة[1].

وهذه الخصيصة توفر أيضًا الستر والخصوصية لأهل البيت، حيث تطل منافذهم علىٰ الداخل، ويستترون عن عيون المارّة، بعكس العمارة الحديثة.

وقد التفت المفكرون الغربيون إلىٰ إبداع العمران الإسلامي، وتجديده، وقدرته الهائلة علىٰ تجسيد قيم الحضارة التي انبثق منها.. وسنعرض فيما يلي لشهادة ثلاثة من هؤلاء المفكرين: لوبون، جارودي، هوفمان.

لوبون.. الفنون مرآة المجتمعات

يعد جوستاف لوبون واحدًا من أبرز المستشرقين الذين رصدوا بإعجابٍ معالمَ الحضارة الإسلامية، من خلال سِفره الضخم "حضارة العرب"، الذي طوّف فيه بالمجالاتِ والمظاهر المتنوعة لتلك الحضارة التي امتدت علىٰ رقعة مترامية الأطراف، في عصور متعاقبة، راصدًا الإسهامات المتميزة التي قدمها المسلمون للعالم.

وهو يرىٰ أن الفنون مرآة المجتمعات، تعكس واقعها، وأنه إذا «كانت الفنون عنوانَ مشاعر الأمة وتصوراتها، كانت العواملُ القادرة علىٰ تحويلها كثيرةً كثْرةَ العوامل التي تؤثر في المجتمعات»[2].

ويشير إلىٰ ثراء الفنون العربية، الجميلة والصناعية، من العمارة، والنحت، وصناعة الخزف، والزجاج الفني، والفُسيفساء، والنجارة، وغير ذلك.. مؤكدًا أن

(1) د. عفيف البهنسي، فنون العمارة الإسلامية وخصائصها في مناهج التدريس، علىٰ الشبكة العنكبوتية.
(2) لوبون، حضارة العرب، ص: 498، ترجمة عادل زعيتر، طبعة مكتبة الأسرة، 2000م.

«مباني العرب أهمُّ آثار العرب الفنية»[1].

ويبين أن العرب في بداية حضارتهم وفنِّهم المعماري قد اقتبسوا من الفرس والبيزنطيين، لكنهم برأيه قد تحرَّروا من هذه المصادر، وانتهَوْا إلىٰ إبداع طراز مستقل خصب[2].

ومن خلال المقابلة بين مباني العرب في مختلف البلدان التي دانت لهم، يخلص لوبون إلىٰ أن تلك المباني يَظهر فيها «تماثُلها الذي نشأ عن وَحدة النُظم والمعتقدات، ويظهر تبايُنها الذي نشأ عن اختلاف البيئات والعروق التي كانت تلك النظم والمعتقدات سائدةً لها»[3].

أي أنه يلفت النظر إلىٰ أن العمارة الإسلامية في مختلف البلدان تتشابه؛ لقيامها علىٰ نظام قيمي مستمد من المنهج الإسلامي. كما أنها تختلف وتتباين؛ لوجود مساحة من المرونة والانفتاح، تسمح بأن تتأثر تلك العمارة ببيئاتها المختلفة.

ولوبون، سواء في تأكيده قيامَ العمارة الإسلامية علىٰ نسق قيمي، أو في تأكيده انفتاحَ العمارة الإسلامية علىٰ غيرها من الثقافات، فإنه يتفق مع رؤية المفكر الفرنسي رجاء جارودي كما سيأتي بيانه..

جارودي.. جميع الفنون تؤدي إلىٰ المسجد

لقد أبدىٰ رجاء جارودي اهتمامًا مبكرًا بالعمارة الإسلامية وفنونها المتعددة، وسجل إعجابه بها بتفصيل ينم عن إحاطة ووعي، خاصة في كتابه: «في سبيل حوار الحضارات». والمفارقة أنه أصدر هذا الكتاب قبل أن يعلن إسلامه، وأراد به إنصاف الحضارة الإسلامية، وإبراز دورها الأصيل في قيام النهضة الغربية الحديثة.

يؤكد جارودي ابتداءً وحدة الفن الإسلامي، وارتباطه بالعقيدة الإسلامية القائمة علىٰ التوحيد، باعتباره- أي التوحيد- ركيزة أساسية تصبغ بطابعها ما يليها من

---

(1) المصدر نفسه، ص: 506، 507، باختصار.

(2) المصدر نفسه، ص: 523، بتصرف يسير.

(3) المصدر نفسه، ص: 523.

تفصيلات وتفريعات، فيقول: «الفن الإسلامي يعرب عن تصور للعالم يسود بآن واحد مصيره وصيغه ومفرداته التشكيلية وتقنياته»[1] .

ويعاود التأكيد علىٰ تلك النقطة لأهميتها في كتابه «وعود الإسلام» فيقول: «إن نظرة واحدة- وإن كانت سطحية- علىٰ الشواهد الكبرىٰ للفن الإسلامي في العالم، تكشف عمق وحدته وأصالته، فأيًا ما كان الحيز الجغرافي المقام فيه الأثر أو غايته، فإننا نحس بأننا نعيش فيه التجربة الروحية نفسها»[2].

ويوضح جارودي أن مفهوم «التوحيد» قد أدىٰ إلىٰ أن ينطبع الفن الإسلامي بالتجريد، لا التجسيم، إضافة إلىٰ الانفتاح علىٰ فنون الثقافات الأخرىٰ.. وبالمقابل، أشار إلىٰ أنه يمكن لمن يُجري استقراءً للفنون الإسلامية أن يهتدي إلىٰ مفهوم «التوحيد» كخيط مشترك ينساب بين أنسجة تلك الفنون، فيقول: «هذا المفهوم عن التعالي الإلهي (التوحيد) يسود فنون الإسلام ويقودها إلىٰ شكل مجرد (التجريد)»[3] .

ويضيف عن تجربته الذاتية في فهم الإسلام من خلال الفنون الإسلامية: «إنني انطلاقًا من تأمل فنون الإسلام ومساجده إنما شرعت أفهم عظمة العُقيدة الإسلامية، بتأكيدها الجذري علىٰ التعالي، وفي الوقت ذاته، علىٰ انفتاح، وعلىٰ قبول لا يقتصر علىٰ سائر أُسر الإيمان الإبراهيمي وحسب، بل يمتد إلىٰ إمكان حوار خصيب مع حكمة آسيا والهند واليابان»[4] .

---

(1) جارودي، في سبيل حوار الحضارات، ص: 171، ترجمة د.عادل العوا، طبعة مكتبة الأسرة، 2013م.

(2) جارودي، وعود الإسلام، ص: 144، 145، ترجمة د.ذوقان قرقوط، دار الرقي/ مكتبة مدبولي، ط2، 1985م.

(3) جارودي، في سبيل حوار الحضارات، ص: 171.

(4) المصدر نفسه، ص: 7. ولا يفوتنا أن نشير إلىٰ أن جارودي يقصد من «أسر الإيمان الإبراهيمي»: الشرائع السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، لأنها تشترك في أنها- في الأصل- من عند الله سبحانه وترجع إلىٰ أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، لكن دخل التحريف والتبديل علىٰ كثير من أصول اليهودية والمسيحية، بخلاف الإسلام الذي حفظه الله وارتضاه لعباده إلىٰ قيام الساعة. ومن هنا، فمصطلح «الإيمان الإبراهيمي» قد يستخدمه البعض للتمويه علىٰ الاختلافات الجذرية بين الإسلام من جهة واليهودية والمسيحية من جهة أخرىٰ، بدعوىٰ رجوعها جميعًا إلىٰ نبي واحد.. وهذا خطأ فادح يجب الحذر منه.

أما عن جماليات العمارة الإسلامية، والتي تبدت كأوضح ما يكون في المساجد، فيشهد جارودي أن «المسجد بلا ريب هو المثل الرمزي الأعظم» للعمران الإسلامي وفنونه، وأنه «نوع من صلاة الحجارة، وملتقىٰ جميع فنون الإسلام. وقد أصاب القائلون إن جميع الفنون تقود في الإسلام إلىٰ المسجد، والمسجد إلىٰ الصلاة»[1].

ويلاحظ جارودي أن من بين السمات الأساسية للمسجد أن بناءه يرتبط بوظيفته، فهو «من حيث بنيته ذاتها، يستجيب لوظيفته. إنه لا يشبه الكنيسة المسيحية، ولا المعابد الإغريقية. إنه لا يصلح صندوقًا للاحتفاظ برفات قديس، ولا ديكورًا لحفلة شعائرية، وهو يريد أن يكون مجرد مصلًّىٰ لذكر الله. ومن هنا، نشأ شكله الأصيل، إنه لا يشبه في شيء خلية المعبد الإغريقي، ولا التصميم الطولاني للكنائس المسيحية. إنه أعرض ما يكون العرض؛ حتىٰ يتيح لأكبر عدد من المؤمنين أن يقابلوا المحراب، الذي يدل علىٰ القبلة نحو مكة».

مراد هوفمان.. البساطة والتجريد

أما السفير مراد هوفمان فقد شرح جماليات العمارة الإسلامية- خاصة بناء المساجد- علىٰ نحو يَسْترعِي الانتباه، يكشف عن مدىٰ الدقة والروعة والتناغم بين الحجر وبين إيحاءات العقيدة الإسلامية، التي تمتد خيوطها لتشمل كل نواحي الحياة.

يقول هوفمان: تثير العمارة الإسلامية في زخرفتها الخارجية والداخلية- رغم تنوعها الكبير- شعورًا بالمكان ذا طابع إسلامي مميز، يستوعب ملامحه البارزة والدقيقة، وهو ما يمكن للمرء أن يشهده- علىٰ سبيل المثال- في مباني وباحة قصر الحمراء في غرناطة، أو في المساجد المميزة مثل تلك التي توجد في قرطبة والقيروان والقاهرة وإسطنبول.

ويبين هوفمان أن الخاصية الإسلامية المميزة لهذه التجربة الفنية ترجع إلىٰ عدة عناصر، هي علىٰ وجه التحديد:

(1) المصدر نفسه، ص: 171.

* المثل الأعلىٰ الخاص بالبساطة في الواجهات الخارجية للقصور الإسلامية، والتي تكاد توحي للمرء بالمسلمة الجميلة التي تسدل الحجاب علىٰ وجهها عندما تغادر دارها.

* الطابع الديمقراطي اللاطبقي للإسلام الذي يغلب علىٰ تصميم أماكن العبادة الإسلامية.

* الدرجة العالية من التجريد، والتي تتفق مع جلال الله عن الوصف عند المسلمين.

* الأبعاد الإنسانية في تكوين النسب المعمارية، والتي تعكس حرص الإسلام علىٰ التوازن، والاعتدال، ومنهج الوسطية في معالجة كل الموضوعات.

* تجرد أماكن الصلاة من المناخ السحري، الذي يدل علىٰ خلو الإسلام من الطقوس والأسرار المقدسة والغموض.

* تصميم الحدائق بوحي من وصف القرآن للجنّة.

ويشير هوفمان إلىٰ أن «التجريد» المتمثل في التداخل اللامحدود للزخرفة العربية (الأرابيسك)، يطلق عقال العقل للتركيز في الله الجليل عن الوصف، والتحديد، والقياس.. ولذلك غابت عن المساجد الصور التي تصوِّر الله أو الإنسان[1].

ولعل بساطة المساجد- علىٰ النحو الذي فصَّله هوفمان- هي ما جعلت الكولونيل «دونالدس روكويل»، الذي أسلم، يذكر أنه عندما كان يقف في مساجد إسطنبول ودمشق وبيت المقدس والقاهرة والجزائر وطنجة وفاس، وغيرها من المدن، كان يحس بشعور عميق بقدرة الإسلام في بساطته علىٰ الارتفاع بروح البشر إلىٰ الآفاق العليا، دون حاجة إلىٰ زخارف أنيقة، أو تماثيل، أو صور، أو موسيقىٰ، أو طقوس رسمية، فالمسجد مكان للتأمل الهادئ، ونسيان الذات، وفنائها، واندماجها في الحقيقة الكبرىٰ؛ في ذكر الله الأحد [2] .

---

(1) هوفمان، يوميات ألماني مسلم، ص: 22- 24، بتصرف يسير، ترجمة د.عباس رشدي العماري، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط1، 1993م.

(2) نقلًا عن: محمد عزت الطهطاوي، في الدعوة إلىٰ الإسلام بين غير المسلمين، ص: 201، دار التراث، ط1 ، 1979م.

هل مشكلة الغرب معنا معرفية؟

هل حقًّا مشكلة الغرب معنا- نحن المسلمين- مشكلة "معرفية"، أي ترجع إلىٰ «عدم فهمه» لقضايانا؟

في البحث عن إجابة لهذا التساؤل، ينبغي- حسبما يؤكد كثير من الباحثين- أن نفرق بين مستويين:

المستوىٰ الأول وهو: الشعوب الغربية، وهذه الشعوب- في معظمها- ضحية للآلة الإعلامية الجبارة، التي تدار لمصالح وأطماع جماعات خاصة، للأسف أنها بيدها (الحل والربط).

ولذلك علينا أن نمد جسور التعارف مع هذه الشعوب، وأن نشرح لهم قضايانا، آخذين في اعتبارنا طبيعة المداخل الفكرية والاجتماعية التي يتعين علينا أن نسلكها معهم.

أما المستوىٰ الثاني فهو: الحكومات الغربية، ومشكلة هؤلاء بالنسبة لنا لم تكن أبدًا مشكلة معرفية، حتىٰ يكون ثمة مبرر لمن يريد أن «يشرح» لهم عدالة قضايانا.

الحكومات الغربية لا تفهم إلا لغة «المصالح» و«القوة»، فقط لا غير، ومن يظن غير ذلك يخدع نفسه، ويبتعد عن المسار الذي يجب أن نسلكه.

والحل إذن أن نعمل علىٰ النهوض بواقعنا أولًا، وأن نحسن إدارة أوراق الضغط التي نملكها.. وما أكثرها لمن أراد!

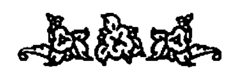
يخبرنا التاريخ أنه حينما بدأت طلائع الاستعمار تشق طريقها إلىٰ أرضنا ومقدساتنا، زحفًا وراء البلاد التي تفيض «سمنًا وعسلًا»- كما شاع في أدبياتهم آنذاك- فإن هذه الطلائع «العسكرية» صحبت معها جيوشًا «ثقافية» فيما عُرف بالاستشراق، وهؤلاء المستشرقون درسوا وخبروا جيدًا العالم الإسلامي أكثر مما يعرفه كثير من أبنائه!

وكان الاستشراق هو المنجم الفكري الذي يغذي تلك الهجمة الاستعمارية بالمعلومات والبيانات عن العالم الإسلامي، فرقًا ومذاهبَ وأفكارًا، وثرواتٍ ومعادنَ وكنوزًا.

وتطورت تلك المدارس الاستشراقية حتىٰ آلت مهمتها إلىٰ مراكز الأبحاث والدراسات المختصة بالعالم الإسلامي، والتي تنتشر بلا حصر في البلاد الغربية، وبعضها يمتلك فروعًا في العالم العربي.

وبالتالي، فلم تكن المشكلة بيننا وبين الحكومات الغربية مشكلة «معرفية»، إنما تتمثل المشكلة- بلا تحامل منا- في الطبيعة الغربية الاستعمارية، التي قامت علىٰ ضرورة إيجاد «عدو» تتخلص بالاحتشاد لمواجهته من مشاكلها الداخلية، فضلًا عن طمعهم في استنزاف ثروات الغير، بأبخس الأثمان، وأحط الوسائل!

ومع ذلك، فليس الملام علىٰ من له أطماع واستراتيجيات، إنما الملام ينبغي أن يتوجه إلىٰ من ترك ساحته فارغة، ومقدساته وثرواته بلا حامٍ.. حتىٰ رتع فيها اللصوص وقطاع الطرق.



الفصل الرابع

في
الأمل والمستقبل



الخطاب الإسلامي والمستقبل.. ضرورة لا ترف!!

حين نتأمل مسيرة العقل المسلم، وتجربته الحضارية الفريدة، نجد أنه قد توالت عليه عبر عقود عدة أزماتٌ جسيمة، وتآمرت عليه قوىٰ مختلفة من الشرق والغرب، وحورب بوسائل متنوعة: سياسية، وثقافية، واجتماعية، واقتصادية.. حتىٰ فَقَد بعضًا من مناعته الذاتية، وتأثر - إلىٰ حد ما- بمحاولات التشكيك في ثوابته وجذوره، وانغلق علىٰ ذاته بعد أن كان يمدّ جسور الحوار مع سائر الحضارات، ويتفاعل معها دون ذوبان أو جمود..

ومن ثم، انشغل العقل المسلم بحاضره وتاه فيه، حتىٰ استغرقته همومه ومشاكله، وصار عاجزًا عن استشراف آفاق المستقبل، والتطلع إلىٰ الغد المجهول، بل في بعض الأحيان لم يكن قادرًا علىٰ الإحاطة بحاضره، واستيعاب خرائطه وملامحه، ومعرفة جزئياته وتفاصيله .. فبدا حال العقل المسلم المعاصر- للأسف- كمن يعيش في برج عاجي بعيدًا عن واقع الناس واهتماماتهم!

ولا يظنن أحد أن الحديث عن ضرورة استشراف المستقبل، وإعداد العدة له، هو مما يمكن التسامح فيه، والتغافل عنه... فإن تجارب التاريخ تؤكد لنا أن من لا يحسن التخطيط لما هو آتٍ، ولا يحتاط لكافة الاحتمالات وتقلّب الأمور.. يكون معرّضًا دائمًا لردّة الفعل العشوائية، وبالتالي يكون مُعرضًا للتأثر بمخططات الآخرين ومؤامراتهم، ولن يستطيع الأخذ بزمام الأمور، وامتلاك المبادأة التي تمكنه من تجنب تكرار أخطائه، ومن الإفلات مما يُراد به ويُحاك ضده.

وللمرء أن يندهش حين يعلم أن الدراسات التي تُعنىٰ باستشراف المستقبل، واستكناه حقائقه، قد تطورت في الدول الغربية، وصارت عِلمًا مكتمل الأركان والشروط والأدوات، يسمىٰ «علم المستقبليات»، تقوم عليه مراكز أبحاث وجامعات تضم في تشكيلاتها تخصصات علمية مختلفة، بما يحقق تكامل المعارف وتساندها،

ويوفر رؤية كلية واعية... في حين أن الاهتمام بهذا العلم لم يعرف طريقه بعد إلىٰ جامعاتنا العربية.. وتلك مفارقة لها رمزيتها، ودلالتها، ولها أيضًا تبعاتها.

لا تكن أسير الزمن والجغرافيا

إن المتتبع للخطاب الإسلامي- قرآنًا وسنةً- يتأكد له أن هذا الخطاب منذ بدايته لم يُعْنَ فقط باللحظة الراهنة، وكيفية التعامل معها، بل عُني- إضافة إلىٰ هذا- بتوجيه الأنظار نحو المستقبل، وحثِّ الهمم لاستشراف الغد المجهول... فمع تنزّل القرآن الكريم كان الحديث المتكرر، والتنبيه الدائم، إلىٰ الدار الآخرة، وما بعد الموت من جنة أو نار، وتأثير ذلك علىٰ حاضر الإنسان في الحياة الدنيا.

ليس هذا فحسب، بل تحدث القرآن عن الصراع بين الفرس والروم وطبيعة المواجهة بينهما، وأخبر عن انتصار الروم في بضع سنين، قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ (الروم). وفي هذا توجيهٌ للمسلمين لمدِّ أبصارهم خارج حدودهم الجغرافية- وكذلك الزمنية- ومتابعة ما يجري فيها من تطورات وانعكاسات علىٰ علاقة المسلمين مع الآخرين، وعلىٰ سير الدعوة الإسلامية في الداخل والخارج.

وجاءت قصة يوسف عليه السلام، حين تولىٰ خزانة مصر ووضع الخطط لمواجهة المجاعة والقحط.. تدريبًا عمليًا علىٰ مواجهة الأخطار التي تلوح في الأفق، وكيفية التصدي للأزمات الاقتصادية والمجاعات، وتنفيذ الخطط الخمسية والعشرية.. وضرورة الاعتماد في ذلك علىٰ الحقائق والأرقام، والعمل الجاد المتواصل، دون تقاعس أو تواكل، وأيضًا دون تهويل أو تهوين..

وهذا يؤكد- من ناحية أخرىٰ- أن الخطاب الإسلامي لا ينعزل عن هموم الناس ومشاكلهم، ولا يُعنىٰ فقط بالجانب التعبدي، ولا يرضىٰ أن يعتكف المسلم في زاوية من المسجد تاركًا حياته ومعاشه، بل الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا.. يتفاعل مع الحياة ولا يخاصمها.. ويتقاطع معها ولا ينعزل عنها.. يأمر

المسلم بعمارة الأرض ويجعل من ذلك دينًا يتعبد به المسلمُ ربَّه.

وقد تأكد هذا المعنىٰ- شمولية الإسلام- في مواضع كثيرة من القرآن؛ يكفي أن نذكر في هذا المقام أن الله سبحانه قَرَنَ في آية واحدة بين عبادته والاستغفار والتوبة وبين عمارة الأرض، فقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ (هود).

كما جاءت **أحاديث النبي ﷺ، التي تُبشِّر بانتصار الإسلام**، وأنه سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، وما من بيت مدر ولا وبر- أي: بيوت المدن، وبيوت البادية- إلا وسيدخله الإسلام، وأن المسلمين سينتصرون علىٰ اليهود في آخر الزمان، بعد قتال شديد يختبئ فيه اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي تعال فاقتله.. وكذلك **أحاديث أمارات اقتراب يوم القيامة، والنذر الدّالة عليه**، مثل: تبدل الأحوال، وانقلاب الموازين، وولادة الأمَة ربتها، وشيوع الفواحش، وانتشار الظلم، وضياع الأمانة..

جاءت هذه الأحاديث لتجعل أمام العقل المسلم صورة حاضرة لاحتمالات المستقبل، ومآلات الأحوال؛ ولتحثه علىٰ اجتناب ما يمكن أن يتسبب له في أزمات وعثرات، وتدفعه أيضًا لما يتعين عليه فعله لمواجهتها ودفع ضررها.

العقلية «الاتكالية» حبيسةُ الماضي:

لقد مرّت أمتنا الإسلامية بالكثير من الأزمات المتلاحقة والمتشابهة، بدءًا من الفتنة بين الصحابة ﷺ جميعًا، والصراع الحاد بين الأمويين والعباسيين، وما تأسس عليه من الاختلاف المذهبي البغيض، مرورًا بسقوط الخلافة الإسلامية في بغداد، ثم زوال دولة الأندلس بعد صراع الطوائف، ودسائس الملك العضوض، حتىٰ سقطت الخلافة العثمانية، وتحولت الدولة الإسلامية إلىٰ دويلات مفككة، تتناحر فيما بينها ولا تقوىٰ أمام الأخطار الخارجية المتربصة، التي تستهدفهم جميعًا دون استثناء..

وغير خافٍ علىٰ أحد أن السقوط الثاني للخلافة الإسلامية كان مقدمة لما نعانيه

اليوم، من تفرّق الكلمة، وتشتت الصّف، وضياع الهوية، والاستجابة لمحاولات التغريب والعَلمَنة، وذوبان الشخصية المسلمة في موجات الحداثة والعولمة.

ومع كل هذه الأزمات، التي أخذ بعضها بأيدي بعض، ونقلتنا من سيئ إلىٰ أسوأ، لم نجد مَنْ يحسن دراستها، والوقوف علىٰ أسبابها، واستخلاص العبرة منها، بل غفلنا عن إدراك سنن الله الثابتة في نهوض الأمم وسقوطها، وسادت «العقلية الاتكالية»، العاجزة عن رؤية الأزمة في جذورها وأصولها، وانتشرت نظرية «المؤامرة»، التي ترمي بالمسئولية (الكاملة) علىٰ الآخرين دون توجيه النقد إلىٰ الذات، مع أن الضعف الذاتي- أو «القابلية للاستعمار» كما يسميه مالك بن نبي- يشكل العامل الأساسي لقبول التأثير من الآخرين، والتجاوب مع مؤامراتهم ومخططاتهم.

ولهذا كان القرآن حريصًا علىٰ لفت الأنظار إلىٰ أهمية (العامل الذاتي)، سواء في تحقيق النصر أو حدوث الهزيمة، فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ (آل عمران)، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ (الرعد: 11).

ولم يكن بمقدور هذه «العقلية الاتكالية» أن تتعاطىٰ بفهم وعمق مع ما يعتريها من نكبات، وما يصيبها من أزمات، حتىٰ تطمئن إلىٰ عدم الوقوع مرة ثانية في نفس الحفرة، ولا تُلدغ من جحر واحد مرتين[1]، بل عميت عن عبرة الأحداث، وتغافلت عن قراءة التاريخ، الذي من الممكن أن يتكرر إذا ما توافرت الدواعي والأسباب التي كانت من وراء حدوثه أول مرة.

وبذلك فقدَ العقلُ المسلم أولَ شرط لازم لاستشراف المستقبل، ألا وهو «حسن قراءة التاريخ»، واستيعاب أحداثه، بما فيها من انتصارات وانكسارات، واستصحاب العبرة منهما للحاضر والمستقبل.

يقول الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله: «إننا لم نحسن دراسة ما أصابنا من هزائم

---

(1) روىٰ أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» (متفق عليه).

فادحة، وما أقمنا حواجز ضد تكرارها، ولا يزال ناس منا مشغولين بأنواع من المعرفة لا تضر عدوًا ولا تنفع صديقًا، وتيار الأحداث الزاخر يلطم الوجوه، ويطوي جماهير بعد أخرىٰ، ونحن لا نربط النتائج بأسبابها، وما فكرنا في دراسات ذكية جريئة لمعاصينا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا أدري: لماذا الخشية أو لماذا الجمود؟ هل مستقبل أمة من مليار إنسان شيء هيِّن؟ هل النكسات التي عرت رسالتها غير جديرة بالتأمل!»[1].

ولذا كان من أعظم المسلم الخطاب الإسلامي المعاصر: أنه يستنفد طاقاته في التغني بأمجاد المسلمين، وحضارتهم، التي سادت الدنيا لعدة قرون، ونشرت العلم والمعرفة، وأرست قواعد المنهج التجريبي، الذي مهَّد لقيام الحضارة الغربية الحديثة بعد عصورها المتتابعة من الظلام والتخلف.. ولا يحاول أن يتخذ من أمجاد الماضي نقطة انطلاق، وعلامة يهتدي بها وسط أزماته الحالكة، فهو عاجز عن مواجهة الحاضر بمشكلاته، فضلا عن التطلع للمستقبل بآماله، كما أنه غير قادر علىٰ مدِّ البصر خارج حدود الزمان والمكان.. فالزمان والمكان يستوعبانه بدلاً من أن يستوعبهما هو، ويسخرهما للغاية التي من أجلها خلقه الله، واستخلفه في الأرض.

يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة: «من إصابات العقل المسلم عدمُ استشراف آفاق المستقبل علىٰ ضوء الماضي والحاضر، وفهم الحركة التاريخية، ومراقبة مجراها، ومن ثم معرفة مصبها مستقبلًا. وأعتقد أنه لا يجوز الهروب من النظر إلىٰ المستقبل تحت عنوان (المستقبل بيد الله)... فتعطيل النظر إلىٰ المستقبل، بعد أن أصبحت له دراساته، وعلومه، تحت شتىٰ الاعتذارات، ليس من الدين، بل هو إصابة للعقل، ومجافاة للدين»[2].

ثمة سبب آخر يكبّل العقل المسلم، ويقف دون قراءة «استطلاعية» لحركة التاريخ، هو أنه توجد عشرات القضايا «المعلقة»، التي لم يتم حسمها، أو تقريب

---

(1) مجلة «الأمة» القطرية، ص: 12، عدد 69، رمضان 1406هـ.

(2) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، ص: 107، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1414هـ.

وجهات النظر حولها، ولا تزيدها الأيام إلا تعقيدًا وتشابكًا، الأمر الذي يهدد العقل المسلم بأن يظل دائرًا في دائرة مفرغة، وألا يواكب تجدد الحياة وتطورها.. ولا مفرّ في هذا الصدد من الاعتراف بأن الطرح الإسلامي حول هذه القضايا لم يكن على مستوى التحدي الحضاري، بل إن بعض وجهات النظر الإسلامية حول قضية ما قد يصل إلى حدّ التناقض!

خذ مثلا، الموقف من المرأة ودورها السياسي والاجتماعي، أو قضية الديمقراطية ونظم الحكم المعاصرة، أو التعددية في الفكر والممارسة، أو حقوق الإنسان وضوابط الحرية والإبداع، أو الأقليات والتعدد الطائفي والعرقي، ودور ذلك في النسيج الاجتماعي للمجتمع المسلم، أو حوار الحضارات وكيفية التعامل مع العولمة وتجنب مخاطرها...

ستجد أن هذه القضايا وغيرها، برغم ما قُدِّم فيها من دراسات واجتهادات متميزة، إلا أن إيجاد ما يقارب الإجماع حولها، وتقديم مبادئ حاكمة في التعامل معها، لم يتبلور بعد بصورة مناسبة، تمكّن من الانطلاق إلى مرحلة أخرى من قضايا الفكر الإسلامي، وهموم الواقع المتجدد.

عقارب الساعة لا تتوقف..

إننا إذا كنا مَعنيين في «**تجديد الخطاب الإسلامي**» بتنقية التراث، وتهذيب ما به من آراء واجتهادات«بشريةش» لا تتفق والخصائص العامة للإسلام، فإننا معنيون- كذلك- بمواجهة التحديات، واستشراف المستقبل، حتى لا نقع في أسر اللحظة الراهنة، ونغرق في دوامة الحياة التي لا تتوقف.

أدري أن محاولة الحديث عن المستقبل، واستكشاف خرائطه، تعدّ نوعًا من «الترف الفكري» في ظل الواقع الذي يعجّ بمشاكل لا حصر لها.. وفي ظل العقليات التي ذهلت عن حاضرها، وفقدت الوعي بذاتها وإمكاناتها.. وفي أجواء الفتاوى التي تكبّل العقل المسلم، وتحاصره في دائرة ضيقة بعيدًا عن الفكر الإسلامي الرحب، وتعزله عن تيار الحياة المتدفق..

غير أنه لا مندوحة عن توجيه الأنظار نحو الغد، وانتزاع العقل المسلم مما يعكر عليه صفاءه ونقاءه، ولا بديل عن فتح آفاق جديدة أمامه من الفهم والفكر، وحثه دائمًا على التجديد والإبداع مع المحافظ على الأصول والثوابت، ودفعه للتواصل مع سائر الثقافات والحضارات مع التمسك بالخصائص الذاتية والهوية الإسلامية... وما ذلك على المؤمنين ببعيد.

إن أعظم ما في الحديث عن المستقبل، ولفت النظر إليه، أنه انتزاع للإنسان من وهدة اليأس والإحباط، مهما كان الواقع مشبعًا بالمثبطات.. كما أنه إيقاظ للهمم، وتفجير للطاقات الكامنة، وتحريك للنفوس الخاملة..

فهو ينادي هذه النفوس ويلحّ عليها: أن أسرعي الخطو.. وغذّي السير.. فعهد النوم قد مضىٰ.. والشمس تتحرك لا تنتظر القاعدين.. والكون لا يكفّ عن الدوران.. وعقارب الساعة أبدًا في حركة وانتظام.. وزمن البدائية والعشوائية لا محلّ له من النجاح و«الإعراب»!

«صناعة الأمل».. ضمانُ فاعليةِ الأمة

اعتدنا فيما يتعلق بالأمور المادية وظواهر الكون أن نسمع كلمة "الصناعة"، وأن نتحدث كثيرًا عن أهمية الصناعة في التطور الحضاري وتوفير مستوىٰ الرفاهية الذي يطمح إليه الكثيرون، بالإضافة إلىٰ تقسيم الصناعات إلىٰ صناعات ثقيلة، وأخرىٰ متوسطة، وثالثة خفيفة.

كما درجت بعض الكتابات علىٰ تقسيم مراحل التاريخ التي مرت بها البشرية، من حيث العمران والتطور المادي، إلىٰ المرحلة البدائية، ثم الزراعية، ثم الصناعية، ثم الدخول في عصر الذرة والفضاء والتكنولوجيا والتطور اللانهائي والمتسارع مما تشهده البشرية تقريبًا كل لحظة.

هذا كله نعرفه عن «الصناعة» في عالم المادة والأشياء.. لكننا علىٰ العكس من ذلك، قلَّما نستخدم كلمة «الصناعة» في عالم القيم والمفاهيم والأخلاق والتربية، علىٰ الرغم من أن تدعيمَ هذا العالَم- الذي يسميه مالك بن نبي «عالم الأفكار»- وتفعيلَه والوصول به إلىٰ درجة عالية من الحيوية والفاعلية للخروج من المأزق الحضاري، يحتاج إلىٰ جهد وتخطيط ودراسات وبذلٍ بما لا يقل أبدًا- بل ربما يزيد- عما يحتاجه عالم الماديات الذي اختُص بالنصيب الأوفر من كلمة «الصناعة» بما تحويه من معاني التجويد والإتقان والتخطيط والمتابعة.

ونحن إذا تدبرنا القرآن الكريم، وجدناه يستخدم في دقة بالغة كلمةَ «الصناعة» في العالَمَيْن، عالم الأفكار والقيم والمفاهيم، وعالم الأشياء والمادة والخَلق الذي تتجلىٰ فيه بدائع القدرة الإلهية.

ففي المقام الأول، يخاطب ربنا سبحانه وتعالىٰ نبيه موسىٰ عليه السلام ممتنًا عليه، ومذكِّرًا إياه بنعمه واصطفائه، بقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾

(طه) وقوله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ (طه). فنحن هنا أمام حديث قرآني عن«صناعة» للإنسان، مع ملاحظة أن تلك «الصناعة» لم ترد عند الحديث عن الإنسان، مجرد الإنسان، بل وردت فقط عند الحديث عن واحد من أولي العزم من الرسل والأنبياء، وهم الذين جعلهم الله سبحانه «النموذج الكامل» للإنسانية.. مما يدل علىٰ ارتباط «الصناعة» بالإنسانية في أفضل صورها وأجلِّ صفاتها.

أما المقام الثاني، وهو عالم الخَلق والإبداع مما نشاهده كل لحظة، وننعم بخيراته وظلاله في نعم الله التي لا تعد ولا تحصىٰ، فقد وردت فيه آيات كثيرة مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (النمل) وقوله تعالىٰ مخاطبًا نبيه نوحًا عليه السلام: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (هود).

ولا شك أن وُرود كلمة «صناعة» في معرض الامتنان ومخاطبة نبي كريم من أنبياء الله، وأيضًا عند الحديث عن آثار قدرة الله سبحانه في الكون، هو أمر له دلالته ومغزاه مما يحتاج لوقفة مفصلة ليس هذا موضعها، فقد أردت مجرد الإشارة إلىٰ ارتباط لفظة «الصناعة» بعالم الأفكار والقيم والمفاهيم تمامًا كما ترتبط بعالم الأشياء والمادة والخَلق.

ونحن في هذا الظرف الدقيق من تاريخنا، ومحاولات استئناف الشهود الحضاري، واستعادة الفاعلية لأمتنا صاحبة الرسالة الخاتمة، وأمام تلك التحديات المتراكمة التي تواجهنا، لا نحتاج فحسب إلىٰ الأمل، بل إلىٰ أن يتحول الأمل- مع مجموعة أخرىٰ من القيم والمفاهيم والأفكار- إلىٰ«صناعة» راسخة وعميقة في حياتنا وتصوراتنا وسلوكياتنا، علىٰ مستوىٰ الفرد والمجتمع والأمة، بحيث نستطيع الصمود أمام العقبات ونتخطاها، وبحيث نصنع من المحن مِنَحًا، ومن الألم أملًا، ومن دواعي التثبيط والهزيمة والتخذيل أسبابًا ودوافعَ للبقاء والصمود والنهوض والإبداع، واستئناف دورنا الحضاري والإنساني من جديد..

فـ «الأمل» هو من «الصناعات الثقيلة» المطلوب توافرها لمشروع النهضة، وهو

بمنزلة «القاطرة» التي تجرُّ خلفها هذا الجسد المثخَن بالجراح، وتدفعه دفعًا لليقظة واستئناف المسيرة.

لماذا الأمل؟

إن الإنسان بلا أمل هو ريشة في مهب الريح، لا إرادة له ولا اختيار، يتحول إلىٰ «شيء» ليس له من سبيل إلا ردة الفعل، ينتظر فعل الآخرين حتىٰ يحدد لنفسه ما يمكن أن يتخذه من قرارات، وربما لا يقدر علىٰ اتخاذ أي قرار!

هو- دون الأمل- غير قادر علىٰ أخذ زمام المبادرة، وإثبات الذات، وتلبية طموحات النفس، فضلًا عن تحقيق حاجاتها الضرورية.

وبالتالي، فإن أمةً دون أملٍ راسخ عند أبنائها، هي «قطيع» من البشر، يساق إلىٰ هَلَكَته وحتفه لا يملك دفعًا ولا نصرًا! وهي حينئذ- كما جاء في الحديث الشريف- «غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ» (رواه أحمد).

ولن تتحول الأمة- أي أمة- إلىٰ «غثاء» رغم كثرتها، إلا إذا فقدت فاعليتها، وأصبحت مجموعة أصفار مضافةً إلىٰ أصفار.. وهل ثمة شيء يستطيع أن يشلَّ فاعلية الإنسان مثل أن يحيا بلا أمل!

إن استحضار الأمل «الغائب»، كأنما هو «واقع» تراه العين وتلمسه اليد، واستئناس النفس بالفرج القريب، وبالفجر القادم خلف ظلمات الليل البهيم، هو طوق النجاة لها من تتابع الأزمات، وانسداد الأبواب، وتعقد المشكلات.. وهو كفيل- حين يبعث علىٰ استنفاد الأسباب- بأن يجعل الإنسان من داخله في طمأنينة ورضا وسكينة، وبأن تنفسح ذاته حتىٰ تجد في تلك الطمأنينة والرضا والسكينة عوضًا عن ضنك الحياة وبؤس الواقع.

وهذا الأمل الذي ينبغي علىٰ المسلم أن يستحضره، لا ينبني فقط علىٰ الإمكانات المادية التي يملكها بالفعل أو يتوقع حدوثها بالظن، بل يتأسس بالدرجة الأولىٰ علىٰ الإيمان بالله سبحانه والثقة التامة في قضائه وقدره الذي هو دائمًا- أيًا كانت صورته الظاهرة- خير للإنسان.

لذلك لم يكن عجيبًا أن تقترن الصفة التي تضاد الأمل، وهي اليأس، بالضلال والكفر، والعياذ بالله، كما جاء في قول الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الحجر) وفي قول نبي الله يعقوب عليه السلام وهو يخاطب أبناءه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (يوسف).

وفي المقابل، جاء في السنة النبوية ما يؤكد الارتباط الوثيق بين التحلي بالأمل وإحسان الظن وبين الإيمان بالله والثقة في قدره، ففي الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» (رواه البخاري ومسلم). وفي بعض الروايات: «فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ» (رواه أحمد وغيره بإسناد صحيح)، وجاء أيضًا: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ» (رواه مسلم). وقد وردت الحكمة: تفاءلوا بالخير، تجدوه.

تاريخنا.. يفيض بالأمل:

قد يحلو للبعض ألا يرى في مسيرة تاريخنا الإسلامي إلا متواليات من النكبات والعدوان والمؤامرات علينا من أعدائنا بشتى الوسائل ومختلف الطرق، بدءًا منذ أن جهر النبي ﷺ في مكة بالدعوة، إلى إسقاط الخلافة الإسلامية في أوائل القرن العشرين سنة 1924م، ذلك الإسقاط الذي يعد الحدث الأبرز والأسوأ في تاريخنا المعاصر.. ليدلل بذلك على مدى الظلم الذي تعرض له الإسلام، وعلى قسوة التحديات التي عاناها المسلمون.

وقد أتفق مع وجهة النظر هذه، غير أني أستدرك وأقول: إنها لا تمثل إلا نصف الحقيقة على أحسن الأحوال، أما النصف الآخر - وربما الأهم - فهو أن أمتنا لم تستسلم أبدًا لتلك المؤامرات والنكبات، ولم ترفع الراية البيضاء قط، ولم تنسَ أنها صاحبة رسالة وإيمان ومبادئ كفيلة بأن تحرك طاقاتها من جديد.. يحدوها في ذلك إيمان وثيق بالله سبحانه، وأمل ثابت لا يتزحزح في وعده ونصره للعاملين.. فهو سبحانه القائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾(العنكبوت)، والقائل أيضًا: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحشر).

ومن أراد أن يقلب صفحات التاريخ، فليسألْ «القرامطة». وما فعلوه سنة 317هـ بانتزاعهم الحجر الأسود ليبقىٰ عندهم اثنتين وعشرين سنة.. أو ليسأل «الصليبيين» وما فعلوه من قتل وتخريب ببيت المقدس سنة 492هـ، حتىٰ غاصت الخيول في الدماء.. أو ليسأل «التتار» حين دمروا بغداد بقيادة السفاح هولاكو سنة 656هـ، وقتلوا خليفة المسلمين وآلاف الرجال والنساء والأطفال، ودمروا الكتب حتىٰ تألف منها جسر في نهر دجلة يمرّ الناس عليه، وتغير لون الماء إلىٰ السواد!

ليسألْ كلَّ هؤلاء وغيرَهم: هل استكان المسلمون لنكبة حلّت بهم؟! هل يئسوا أمام تحدٍّ مهما كانت قسوته وعنفوانه؟! هل عرف قاموسهم الفكري والثقافي والسلوكي معنىٰ «اليأس» يومًا ما؟!

إن نجاح المسلمين في تخطي تلك العقبات، واحدة تلو الأخرىٰ، لهو شاهد صدقٍ علىٰ ما تحلوا به من إيمان بالله، منحَهم الثقة فيما بين أيديهم من منهج سماوي، وفتحَ لهم أبوابًا واسعة من الأمل الدافع للعمل، وليس المفضي إلىٰ التواكل والاستخفاف بالأسباب.

ومن هنا، فتجارب التاريخ تدلنا علىٰ أن أمتنا قد تمرض لكن لا تموت.. وقد تُهزم لكن لا تُسحق.. وقد يصيبها ما أصاب الأمم السابقة من الضعف والانكسار، غير أنها تظل الأقدر من غيرها علىٰ حشد الصفوف من جديد، وطيِّ صفحة الهزيمة بسرعة لا نظير لها في تاريخ الأمم والحضارات الأخرىٰ.

الأمل والفاعلية:

إن ترسيخ «صناعة الأمل» بحيث تصبح جزءًا من كيان الفرد والمجتمع والأمة، ينعكس إيجابيًا علىٰ الأفكار والسلوكيات وجميع مناشط الحياة.. هذا الترسيخ يتطلب تكاتف جهود المفكرين والدعاة والعلماء والتربويين ومناهج التعليم ووسائل الإعلام؛ حتىٰ يمكن إعادة صياغة الإنسان صياغة جديدة فاعلة، بعيدًا عن أجواء الهزيمة المكبِّلة التي حاصرت الأجيال في القرون الأخيرة، وأشاعت ثقافة الفردية والأنانية واليأس والقنوط، والهروب من المسئوليات وتحدي العقبات.

وكما سبق فإن «صناعة الأمل» ترتبط بمجموعة من الأفكار والقيم، التي يتحول الإنسان بها ومعها إلىٰ طاقة فاعلة إيجابية، تصنع التغيير وتتجاوز المثبطات، وتطمح إلىٰ استكشاف المستقبل ولا تقع في إِسَار الواقع، مهما كان ضاغطًا وثقيلًا ومكبلًا، فضلًا عن قدرة هذا الإنسان حينئذ علىٰ تجاوز الماضي بأخطائه وأحزانه.

* فصناعة الأمل تتأسس عند المسلم أول ما تتأسس، علىٰ الإيمان بالله سبحانه والرضا بقضائه وقدره، فهو سبحانه مالك الكون وما فيه ومَن فيه، وبيده مقاليد كل شيء، لا يشذ صغير أو كبير عن حكمه وسلطانه، كل الأمور تبدأ من عنده وتنتهي إليه، وهي ما بين البداية والنهاية تجري علىٰ قدَره وإرادته ووفق مشيئته وحكمته.

فإذا اعتقد المسلم ذلك اعتقادًا جازمًا، وأدركه إدراكًا لا يخالطه شك ولا ريبة، فهل يمكن أن يتسرب إليه يأس أو قنوط! وهل يفارقه الأمل لحظة واحدة!

* ومن ثم، فإن «صناعة الأمل» يؤدي التحققُ بها إلىٰ بناء النفس السوية غير المتشائمة اليائسة المحبطة، وإلىٰ تكوين الشخصية الفاعلة في الحياة، التي تأخذ بزمام المبادرة ولا تستكين.

* و«الأمل» هو الذي يدفع إلىٰ توظيف الإمكانات المتاحة- مهما قلّت- لتخطي العقبات وتجاوز المحن، فلولا الأمل، لما وُجد الدافع الذي يحدو الإنسان علىٰ الطريق، رغم أنه قد يبدأ من الصفر.. فالإمكانات المادية لم تكن أبدًا هي العائق أمام الإنسان صاحب الأمل والإرادة، وكما قيل: لا يَعدَم صاحبُ الغاية وسيلةً. المهم أن يتوافر الإنسانُ صاحبُ الإرادة القوية، والهدف الواضح، والأمل الثابت، ثم بعد ذلك يبقىٰ إدراك الهدف مسألة وقت لا غير.

* وبإيجاز، نستطيع أن نقول: إن «صناعة الأمل» هي «كلمة السر» في ضمان استمرارية فاعلية الأمة الإسلامية- بل وأي أمة- وعدم انزلاقها إلىٰ مستنقع «الانتحار الحضاري»، أو الركون والموات.

وإن «صناعة الأمل» يحتاجها الفرد كما تحتاجها الأمة، وهي ضرورية حال الهزيمة لنصحو وننهض، مثلما هي ضرورية حال الانتصار لنحافظ علىٰ مواقعنا، ونصنع مزيدًا من الفرص والنجاحات، ولا نصاب بالغرور والانكماش والجمود.

مَوْلد الأفراد والشعوب.. وجْهان لِخَلقٍ واحد..

ما أشبه ولادة الشعوب بولادة الأفراد..

فالفرد.. يبدأ نطفةً، فعلقةً، فمضغةً، فعظامًا، فلحمًا يكسو العظام.. ثم تحين لحظة الانفصال عن رحم الأم.. التي هي ذاتها لحظة الاتصال بالعالم الخارجي.

ثم تبدأ مرحلة الطفولة والنمو والإدراك.. ومن بعدها مرحلة الشباب بفتوتها وحيويتها.. ثم تعقبها الشيخوخة، بما تحمل معها من ضعف، وخمول، وارتداد إلىٰ مِثلِ سيرة الإنسان الأولىٰ.

هي إذن مراحل متتابعة ومتفاوتة.. يُسلِم بعضها إلىٰ بعض.. ويُنبئ بعضها عن بعض.

وهكذا حال الشعوب والمجتمعات والدول والحضارات.. من الصعود والهبوط، فيما يسمىٰ «الدورة العضوية»، وتعبير ابن خلدون مهم هنا، إذ يقول: «الدولة لها أعمارٌ طبيعية كما للأشخاص».

يبدأ الشعب- أي شعب- في «المرحلة الجنينية» يبحث عن عوامل تشكُّله وتخلُّقه وصياغته.. فإذا وجدها وصادفت منه رحِمًا نظيفة من أسباب التحلل والاندثار والإجهاض، أخذت تلك العوامل في التفاعل والنمو تدريجيًّا حتىٰ تشرف علىٰ الاكتمال والفتوة والقوة.. في مرحلة تستمر ما استمر هذا الشعب أو ذاك محافظًا علىٰ عناصر قوته وشبابه، حَذِرًا من الأخطار والتحديات التي تواجهه..

فإذا تمكنت منه عوامل التحلل والتفكك والترف، قضت عليه- تدريجيًّا أيضًا!- حتىٰ يتقهقر في السباق الحضاري، ويجد نفسه في المؤخرة، بعد أن حاز قصب السبق لدورات من الزمن..

لا غرو إذن، أن يذهب بعض المفكرين إلىٰ أن الشعوب والمجتمعات والحضارات يحكم سيرَها وتطورَها أو تدهورَها، سننٌ وقوانينُ ثابتةٌ، تشبه إلىٰ حد

كبير- قد يصل إلىٰ التطابق الكامل- السننَ والقوانين التي تحكم عالم المادة والأحياء..

لقد بدأ مع الإسلام ميلادُ أمة وحضارة وشعوبٍ لم تكن من قبله شيئًا مذكورًا، ولم يكن لها موطئ قدم علىٰ خريطة العالم، سواء السياسية أم الفكرية أم الحضارية.

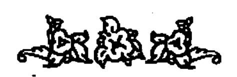
لكن بفضل المنهج الرباني الذي غرسه فيها سيد البشر ﷺ، صار لها في العالمين ذِكْرٌ وأثر.. بل وآثار!.. في نقلة نوعية لم يعرف التاريخ لها مثيلًا..

ثم تتابع تاريخ هذه الأمة في موجات متعاقبة من الصعود والهبوط، الرقي والانحطاط، النشاط والخمول.. وكان من فضل الله عليها أنه قد أبقىٰ فيها جذوة الإيمان مشتعلة، تنتظر من ينفخ فيها من رُوحه وعزمه وسعيه، فإذا بالأمة تنتفض من رقدتها، وتفيق من سباتها، كأن «عهدها بالوجود أمس»! وكأنها ما أصابها شيء من زمن الهزيمة!

وها نحن أولاء نشهد- بعد عصور من التراجع الحضاري والسبات العميق- بشائرَ مولد جديد من دورات الزمن، يُرجَىٰ فيها أن تُبعث شعوبنا من مواتها، وأن تحقق ذاتها وفاعليتها، وأن تستعيد دورها واستقلالها الفكري والحضاري.

فلئن أصابها المرض العضال، فإنها- بفضل الله- لا تموت؛ ولئن دبَّ فيها الوهن وتمكَّن، فإنها قادرة بالنور الذي بين يديها (كتاب الله وسنة نبيها) علىٰ أن تجتاز المحن والعقبات.. شريطة أن تطرح اليأس جانبًا، وأن تبدأ في العمل الجاد، فورًا بلا تباطؤ، وأن تدرك أنه إذا كان للفرد حياة واحدة، فإن للشعوب حيوات متعددة متجددة..

وتستطيع تلك الشعوبُ أن تُعيد سِيرتَها الأولىٰ.. متىٰ أرادت.



الأمل في الله.. نظراتٌ في سورة الضحى

لا تخلو الحياة من أوقات تحيط فيها الهموم بالإنسان من كل جانب، وتتتابع عليه الشدائد حتىٰ لتضيق عليه الأرض بما رحبت.. بل إن نفسه التي بين جنبيه قد تتأبّىٰ عليه..

تلك حقيقة مقررة بالتجربة والمشاهدة.. والتجربةُ والمشاهدة في كثير من الأحايين أصدقُ أنباء من الكتب.

وحينئذ، فإن الإنسان محتاج إلىٰ من يبثُّه شعاعًا من الأمل، ويفتح له بابًا من الرجاء، ويدلّه علىٰ الطاقات الكامنة فيه.. فما أتعس النفس حين يصيبها اليأس والضجر!

وسورة الضحىٰ هي- بحق- لمسة حانية علىٰ القلوب البائسة، وعلىٰ النفوس الحائرة، ودفقة من الأمل تؤكد أن عون الله ورعايته لا يتخلفان عن عباده المؤمنين الصادقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (العنكبوت:).

لا تبتئس بما يقولون:

لقد كان نزول القرآن الكريم علىٰ قلب النبي محمد ﷺ، خير معين له علىٰ مواجهة الصعاب التي لا تنفك عنه، والعقبات التي تواجهه أينما راح.. فكانت الآيات تتنزل علىٰ قلبه الطاهر كأنما هي بَلْسَمٌ يمسح غنه عنت المشركين وإيذاءهم.. فهي تشدّ من أزره وتصبِّره، وتذكر له مصير أقوام سابقين كذبوا رسلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر... فلا تحزن يا نبي الله، ولا تبتئس بما يقولون: ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأنعام).

ولهذه الحكمة العظيمة؛ كان القرآن الكريم ينزل مُنجمًا، حتىٰ يُمدَّ النبيَّ ﷺ

بأسباب التأييد والتثبيت مع كل نازلة تحلُّ به، فقال تعالىٰ يردُّ علىٰ المشركين، لما سألوا مستنكرين نزول القرآن علىٰ فترات متقطعة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الفرقان).

وكان جبريل عليه السلام قد أبطأ بالوحي علىٰ النبي ﷺ في بداية الرسالة- لسبب اختلفت فيه الروايات- فأصاب النبيَّ ﷺ من ذلك حزنٌ شديد، وساءه أن ينقطع عنه- ولو قليلًا- النورُ الذي يربطه بالملأ الأعلىٰ.

وما إنْ علم كفار مكة بفتور الوحي عن النبي ﷺ؛ حتىٰ انطلقت ألسنتهم بالشائعات: أن محمدًا قلاه ربه، وتخلَّىٰ عنه.. ورأوا في ذلك فرصة ليكثّفوا حملاتهم الدعائية الكاذبة، لعلها تفتُّ في عضد المسلمين، وتصرف عنهم من يفكرون في الدخول في الإسلام..

ولم تكن شائعات الكفار لتحزن النبي ﷺ مثلما أحزنه فتور الوحي.. فقد كان الوحي سلواه في مواجهة المحن، وكما يقول صاحب (الظلال) فإن: «الوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله، كانت هي زادَ الرسول ﷺ في مشقة الطريق، وسُقْياه في هجير الجحود، ورَوْحَه في لأواء التكذيب. وكان ﷺ يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة، التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة، ويعانيها في المكر والكيد والأذىٰ المصبوب علىٰ الدعوة، وعلىٰ الإيمان، وعلىٰ الهدىٰ من طغاة المشركين.

فلما فتر الوحي، انقطع عنه الزاد، وانحبس عنه الينبوع، واستوحش قلبه من الحبيب، وبقي للهاجرة وحده، بلا زاد وبلا ري، وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود. وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه..

عندئذ نزلت هذه السورة.. نزل هذا الفيض من الود، والحب، والرحمة، والإيناس، والقربىٰ، والأمل، والرضا، والطمأنينة، واليقين»[1].

ففي هذه الحال الدائرة بين ترقُّبِ نزول الوحي، وبين الحزن لما يُبث من أقاويل وافتراءات.. نزلت سورة (الضحىٰ) تبدأ بالقسم بالضحىٰ، وبالليل وسكونه وظلامه:

---

(1) «في ظلال القرآن»، سيد قطب، 6/ 3926.

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ (الضحىٰ)؛ لتضع بين يدي المسلم صورة متكررة، يألفها الناس ويرونها كل يوم.. فما أجمل نور الضحىٰ وبهاءه بعد ظلمات الليل!.. وما أهدأ الليل إذ يعقب النهار بحركته وصخبه، ويلفُّ الناسَ بسكونه وصمته..

فجاءت الآيات لتقرِّر حقيقة ثابتة راسخة.. واستدلتْ علىٰ ثبوتها ورسوخها ببعض مظاهر الكون، التي يعيشها الناس ويلمسونها..

* فكما يتتابع الليل والنهار في دورات متعاقبة، بحيث لا يدوم أحدهما، كذلك تتتابع أحوال الناس، ولا تدوم علىٰ صورة واحدة.. فهي تدور بين الصحة والمرض، بين الغنىٰ والفقر، بين الرجاء واليأس..

المهم أن يتيقن المسلم أن مع العسر يسرًا، وأن حالاً هو عليه يضجر منه، لن يدوم بإذن الله؛ لأن من رحمة الله أن المحن تحمل في طياتها مِنحًا، وأن النور يُولد من رَحِمِ الظلام والمعاناة.

يقول ابن عطاء الله السكندري في حِكَمِه البليغة: «مَن ظنَّ انفكاكَ قَدَرِه عن لُطفِه، فذلك لِقُصورِ نظرِه».

في الماضي.. زاد للحاضر

جاءت السورة الكريمة لتذكِّر النبي ﷺ بأحواله السابقة، وكيف أن الله بفضله ومنِّه أبدله خيرًا من معاناته، وعوَّضه أفضل مما فاته.. ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ (الضحىٰ).

* لقد كان النبي ﷺ يتيمًا، فَقَدَ أباه وهو مازال جنينًا في بطن أمه، وماتت أمه وله من العمر ست سنين، ثم فقد جده وهو في الثامنة من عمره.. فآواه الله، وأحاطه برعايته وحفظه.

* وكان ضالًا فهداه الله واصطفاه للنبوة والرسالة.. وهو ﷺ وإنْ لم يسجد لصنم قط قبل بعثته، إلا أن القرآن عبَّر عن حاله بالضلال، إذ إنَّ من معاني الضلال- كما ذكر الإمام محمد عبده في تفسيره- اشتباهَ المآخذ علىٰ النفس، حتىٰ تأخذها الحيرة فيما ينبغي أن تختار.. فالرسول ﷺ نظر حوله قبل البعثة، فعرف فساد دين قومه من

مشركي العرب... ومن ناحية أخرىٰ، كان حوله اليهود والنصارىٰ، وكلاهما أصحاب دين سماوي.. لكنه كان في حيرة من أمرهما أيضًا؛ لأن شيئًا من الشرك كان يشوب عقائدهم، وكثيرٌ من السيئات والجرائم تدنس أعمالهم.

كذلك فهو ﷺ في حيرة من قومه، إذ يراهم في سخافة عقائدهم، وتفرُّقِ كلمتهم، وتفانيهم بسفك الدماء، وتحكّم الأجانب من الفرس والروم فيهم.. فيحتار في كيفية تقويمهم، وما الطريق الذي ينبغي أن يسلكه لإيقاظهم من سباتهم»[1] .

* وكان ﷺ فقيرًا لم يرث من والده إلا ناقة وجارية، فأغناه الله بما ربح من التجارة، وبما وهبته له زوجه السيدة خديجة، التي كانت خير رفيق له ومعين في دعوته وجهاده، ضد عنت قومه وتكذيبهم واستهزائهم به وبأصحابه.

فالسورة في هدفها الأسمىٰ، تؤكد للنبي ﷺ أن الذي أيدك بنصره وفضله فيما سبق من شدائد، هو- وهو وحده- الذي سيعينك علىٰ ما نزل بك.. فاطلب العون والمدد منه دون سواه، واستعن به ولا تعجز، ولا تأسَ علىٰ ما فاتك.. فلئن فاتك شيء من حظ الدنيا، فإن الآخرة خير لك من متاعها الزائل، وإن لك عند ربك مقامًا محمودًا، ومنزلةً رفيعةً: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾(الضحىٰ) .

* ثم هي تخاطب كل مسلم- من بعد النبي ﷺ- وتقول له: استرجعْ شريط ذكرياتك، وتأملْ في محطات حياتك.. ستجد أنك قد مرَّ بك من قبلُ شدائد، وألمت بك خطوب.. ثم جاء فرج الله القريب دائمًا، فأذهب الغم، وكشف السوء، وأعاد للوجه بسمته، وللقلب سروره، وللنفس راحتها وطمأنينتها.

وأسلوب القرآن في التذكير بالنعم السابقة في الماضي، واعتبارها دليلًا وبشارةً علىٰ زوال الكروب في الحاضر والمستقبل.. قد ورد أيضًا في سورة (الشرح)، التي تكاد تتطابق مع سورة (الضحىٰ) ، في مضمونها، وأهدافها، ولمستها الحانية.

ولا عجب، فالمعنىٰ الواحد في القرآن الكريم قد تتوالىٰ عليه الآيات لتؤكده

(1) «تفسير الفاتحة وجزء عمّ»، ص 109، 110، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتاب رقم 162، ط 2007م.

وتوضحه.. تفصِّله في موضع، وتُجْمله في موضع آخر.. حسب ما يمليه السياق، وما يتناسب مع مقام النزول.. وفي كلِّ عبرةٌ لقوم يتفكرون.

ونحن نلاحظ أن امتنان الله سبحانه علىٰ رسوله ﷺ في سورة «الضحىٰ»، إنما ينصبُّ بدرجة أكبر علىٰ النعم الحسية (الامتنان بالإيواء من اليُتم، والإغناء من الفقر).. بينما هو في سورة «الشرح» يقوم علىٰ التذكير بالنعم المعنوية (الامتنان بشرْح الصدر، ووضْع الوزر، ورفْع الذكر).. وكلاهما من فضل الله ورحمته التي وسعت كل شيء؛ فهو سبحانه جوَّاد كريم، لا يرد سائلًا، ولا يخيب رجاء من التجأ إليه.. بل يعطي السائلين أفضل مما سألوا وأمّلوا.

أمتنا.. والأمل المفقود:

كما يكون مطلوبًا من (الفرد) أن يترسخ عنده اليقين في الله، والأمل في انفراج الأزمات مهما استحكمت- كما تدلنا علىٰ ذلك سورة الضحىٰ- وبالتالي يدفعه هذا اليقين والأمل للإقبال علىٰ نواميس الله في الكون، والتعاطي معها بفهم ومسئولية وبصيرة.. فإن هذا جدير بأن يكون خُلقًا عامًا في (الأمة) كلها، حتىٰ لا تفقد الثقة في ذاتها وطاقاتها.. وحتىٰ لا تذوب في الثقافات الأخرىٰ، وتفقد شخصيتها واستقلالها وتميّزها.

فمهما تكاثرت المحن علىٰ أمتنا، وتوالت عليها الخطوب، وتحزَّب عليها الأعداء من كل حدب وصوب.. يجب أن نعلم علم اليقين أن الله ناصر دينه، ومُعْلِ كلمته، ومؤيد جنده، وأن هذا الدين سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، كما جاء في الحديث الشريف[1].. بشرط أن نُحسن التوكل علىٰ الله سبحانه، وأن ندرك حقيقة الرسالة المنوطة بنا، وأن نستوفي شروط الخيرية التي شرفنا الله بها..

فسنن الله في النهوض أو السقوط لا تحابي أحدًا، وشروطه في التمكين لا تنحصر في زمان ولا مكان؛ لأن وعده بالتمكين يسري إلىٰ قيام الساعة، وهو متحقق متىٰ

(1) روىٰ تميم الداري عن النبي ﷺ أنه قال: «ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين، يعزِّ عزيز، أو بِذُلِّ ذليل، عزًا يعز اللهُ به الإسلامَ، وذلاً يذل اللهُ به الكفر»، أخرجه الإمام أحمد، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

صادف جند الله الصادقين العاملين: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾ (النور).

إن أمتنا قد تمرض لكن لا تموت.. وقد تُهزم لكن لا تُسحق.. وقد يصيبها ما أصاب الأمم السابقة من الضعف والانكسار، غير أنها تظل الأقدر من غيرها علىٰ حشد الصفوف من جديد، وطيِّ صفحة الهزيمة بسرعة لا نظير لها في تاريخ الأمم والحضارات.

* فإلىٰ الغارقين في بحار اليأس والقنوط، المنسحقين أمام بطش الأعداء.. لن ينفعكم إلا الأملُ الموصول بالله، والتوكلُ علىٰ الله حقّ التوكل، والاعتصامُ بحبله المتين، واليقينُ بأن الآخرة خيرٌ من الأولىٰ..

ولكم في رسول الله وسيرته العطرة، أسوة حسنة..

ولسوف يعطيكم ربكم ما ترجون.



الفهرس

توطئة 5
الفصل الأول: في المصطلحات والتأسيس الفكري 7
الإسلام والفكر الإسلامي.. تشابه وتمايز 9
المصطلحات.. بين التحرير والتزييف 15
ثقوب في البناء الفكري 20
الطُفولة العقلية.. قراءة في الأزمة الفكريّة 22
الفصل الثاني: في أسئلة التغيير والحضارة 29
فقه المواجهة.. معالم ومرتكزات 31
نظرة متأنية في معادلة التغيير الاجتماعي والسياسي 47
تغيير المنكر.. أي تغيير؟ وأي منكر؟ 52
الحِوار.. فريضةٌ غائبة حانَ أذانُها 59
لأنَّ الإنسانَ صَنعةُ الله 65
التعصب... مُفسِد للدين والدنيا 70
الحرية والبناء الحضاري 76
الأشياء.. وسؤال الحضارة 83
الإعلام.. بين المسئولية والمساءلة 85
الإعلام الحائر.. بين الخبر والرأي! 89
واقعية بلا مخالب!! 93
الأخلاق وحدها لا تكفي!! 97

منظمات المجتمع المدني.. إشكاليات تعرقل فاعليتها 100
الانتحار.. مسئولية فرد أم مجتمع؟! 107
الفصل الثالث: في علاقتنا بالغرب 113
قراءة في بواكير المواجهة مع الغرب 115
من صور لقاء الشرق والغرب.. المفكِّرون الغربيّون الذين أسلموا 127
المرأة بين الإسلام والغرب.. تجارب من رَحِم المعاناة 133
العمرانُ الإسلامي.. في عُيونِ الغربيين 140
هل مشكلة الغرب معنا معرفية؟ 146
الفصل الرابع: في الأمل والمستقبل 149
الخطاب الإسلامي والمستقبل.. ضرورة لا ترف!! 151
«صناعة الأمل».. ضمانُ فاعليةِ الأمة 158
مَوْلد الأفراد والشعوب.. وجْهان لِخَلْقٍ واحد! 164
الأمل في الله.. نظراتٌ في سورة الضحىٰ 166
الفهرس 172

